

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

كلية أصول الدين
دائرة الجذع المشترك
علوم إسلامية

جامعة الأمير عبد القادر
للعلوم الإسلامية
بقسنطينة

السنة أولى جذع مشترك علوم إسلامية

مطبوعة التدريس

مادة: الدعوة ورجالها

إعداد: د. نور الدين سكحال

السداسي الأول

السنة الجامعية: 1433-1434هـ / 2012-2013م

أهمية دراسة علم الدعوة ورجالها

1. منزلة علم تاريخ الدعوة ورجالها

نقصد بعلم الدعوة ورجالها نوعاً من المعرفة يهتم برصد الجهود والمحاولات التي بذلت لتبليغ رسالة الإسلام إلى الناس.

وندرک المنزلة الخاصة لهذا العلم من خلال النصوص القرآنية الكثيرة التي دعت إلى الاهتمام بالمعرفة التاريخية عموماً وبهذا النوع منها على وجه الخصوص.

فلا تكاد تخلو سورة من سور القرآن الكريم من دعوة إلى هذا النوع من المعرفة بأشكال وأساليب مختلفة، وهو ما سجّله أحد الدارسين حين قال: "إنّ ثمة حقيقة أساسية تبرز واضحة في القرآن الكريم، تلك هي أن مساحة كبيرة في سوره وآياته قد خصصت "للمسألة التاريخية"، التي تأخذ أبعاداً واتجاهات مختلفة وتندرج بين العرض المباشر والسرد القصصي "الواقعي" لتجارب عدد من الجماعات البشرية، وبين استخلاص يتميز بالتركيز والكثافة للسنن التاريخية التي تحكم حركة الجماعات عبر الزمان والمكان..

وتبلغ هذه المسألة حداً من (الثقل) و (الاتساع) في القرآن الكريم بحيث إن جل سوره لا تكاد تخلو من عرض لواقعة تاريخية، أو إشارة سريعة لحدث ما، أو تأكيد على قانون أو سنة تتشكل بموجبها حركة التاريخ"¹.

ونذكر على سبيل المثال النصوص الآتية من القرآن الكريم التي ورد فيها توجيه مباشر إلى ضرورة تحصيل هذا النوع من المعرفة:

قال الله تعالى: { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ } [النحل: 36].

وقال الله تعالى: { قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ } [آل عمران: 137].

وهناك نصوص قرآنية أخرى كثيرة اهتمت بتسجيل تاريخ رجال الدعوة من الأنبياء عليهم السلام ومن الحكماء والصالحين، ووجهت رسول الله صلى الله عليه وسلم والدعاة من بعده إلى ضرورة معرفة

¹. عماد الدين خليل، التفسير الإسلامي للتاريخ، ص.5.

جهودهم والإفادة منها، فقد قال الله سبحانه وتعالى مخاطباً رسوله صلى الله عليه وسلم: { أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ } [الأنعام: 90]، وقال سبحانه مخاطباً له: { فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ } [القلم: 48]، وقال سبحانه: { نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ } [يوسف: 3]، ليقص عليه قصة يوسف عليه السلام بأحداثها المثيرة وغيرها الكثيرة.

وقد نجد القرآن الكريم يعرف في السورة الواحدة بجهود عدد من رجال الدعوة من الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم، كما نلاحظ ذلك في سورة الأعراف مثلاً، حيث سجلت السورة جهود كل من نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام جميعاً¹.

وسجل القرآن الكريم في سورة ياسين وسورة غافر جهود بعض رجال الدعوة من أتباع الأنبياء عليهم السلام، دفاعاً عن الرسل ودعوة إلى دين الله.

هذه بعض النصوص القرآنية التي تظهر بجلاء المنزلة الرفيعة التي يوليها الإسلام لهذا العلم، أما النصوص في السنة النبوية فيمكن أن نذكر حديث " إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةٍ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا " ²، الذي يؤكد أن تاريخ هذه الأمة لا يخلو من الدعاة والمجددين، ويحث المسلمين على معرفة جهودهم ودراستها.

أما إذا نظرنا إلى واقع المجتمع الإنساني في هذا العصر، وما ظهر فيه من طغيان للمادة وغياب للقيم والأخلاق، وانتشار للفساد والشذوذ، حتى أطلق عليه بعض الدارسين "جاهلية القرن العشرين"³، كذلك إذا نظرنا إلى واقع الدعوة الإسلامية في هذا العصر، وما أصابها من إخفاقات، حيث بذلت جهود وأوقات وأموال وأرواح، لكنها لم تؤت أكلها، ولم تحقق من ورائها إلا نتائج يسيرة إذا ما قورنت بهذه الجهود والتضحيات.

فهذا الواقع بشقيه يجعلنا ندرك كم نحن في أمس الحاجة إلى هذا العلم الذي يبصرنا بطرق الارتقاء بحياة الناس والسمو بهم في مدارج الكمال الإنساني، ومعالجة ما طرأ عليها من فساد، كما أنه يسهم في ترشيد العمل الدعوي ليكون أداؤه أفضل وأفضل، ويصل إلى نتائج مناسبة للجهود التي تبذل.

1. انظر الآيات: 59-168 من سورة الأعراف.

2. أبو داود، السنن، كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة، حديث رقم: 4293، وقد قال فيه السيوطي: اتفق الحفاظ على تصحيحه.

3. محمد قطب في كتابه جاهلية القرن العشرين.

والخلاصة أن لهذا العلم منزلته الرفيعة سواء بالنظر إلى النصوص القرآنية ومدى احتفالها به، أم بالنظر إلى الواقع المرير الذي تعيش فيه الإنسانية في هذا العصر.

2. مجال البحث في تاريخ الدعوة

لكل علم من العلوم مجال محدد يبحث فيه، يمثل الحدود التي تميزه عن سائر العلوم، وإن كان للعلوم قواسم مشتركة تلتقي فيها.

فإذا كان مجال البحث في علم الفقه هو الأحكام الفرعية العملية، وفي أصول الفقه مصادر الأحكام وطرق الاستنباط، فإن المجال الذي يبحث فيه تاريخ الدعوة ورجالها مجال محدد كما يشير إليه الاسم الذي سمي به " الدعوة ورجالها".

ونقف قليلاً عند مفردات هذا الاسم لنحدد مجال البحث فيه، فمصطلح " الدعوة" يطلق على أمرين: أولهما المحتوى الرسالي الذي ضمنه الله تعالى الوحي الذي بعث به رسله عليهم الصلاة والسلام، وثانيهما الجهود التي تبذل لتبليغ هذا المحتوى وتعريف الناس به، وإحداث تغيير في حياة الناس به¹. والدعوة بالمفهوم الثاني تشمل مراحل ثلاث: مرحلة التبليغ، ومرحلة التعليم أو التكوين، ومرحلة العمل أو التنفيذ، لذلك عرف أحد الدارسين الدعوة بأنها: " تبليغ الإسلام للناس، وتعليمه إياهم، وتطبيقه في واقع الحياة"².

فمفهوم الدعوة في اسم هذا العلم يشمل الأعمال الثلاث: البلاغ، والتربية والتعليم، والتنفيذ والتطبيق، وكل من بذل جهداً في القيام بعمل من هذه الأعمال بهتم هذا العلم بتسجيل جهده ودراسته.

والمفردة الثانية في اسم هذا العلم "رجالها"، فكلمة رجال مضافة إلى الدعوة بالضمير "ها"، لبيان أن هذا العلم يرصد سير الدعوة الإسلامية من خلال الجهود التي يبذلها رجالها من الدعاة، وتبدأ قائمة هؤلاء الرجال بالأنبياء وخاتمهم محمد عليهم الصلاة والسلام لأنهم دعوا جميعاً إلى الإسلام، وإن اختلفت شرائعهم، وتشمل من جاء بعدهم من أتباعهم ومن دعا بدعوتهم، إلى يوم الدين، لا يخلو منهم عصر.

1. الطيب برغوث، منهج النبي صلى الله عليه وسلم في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية، ص.68.

2. محمد أبو الفتح البيانوني، المدخل إلى علم الدعوة، ص.17.

ومصطلح رجال يشمل كل من بذل جهداً في الدعوة، دو اعتبار لانتماء فكري أو مذهبي أو سياسي، أو للمنهج الذي اختاره رجل الدعوة لدعوته، لأن كل ذلك محكوم بظروف العصر ومشكلاته، قال أبو الحسن الندوي منبها إلى هذا الأمر: "إن الزمان والبيئة عاملان هامان في حياة الرجال، فلكل عصر مشاكل ومسائل، وملابسات وعوائق، قد تحدّد نطاق العمل، وقد تفرض منهجا دون منهج، وأسلوبا دون أسلوب، والغاية واحدة"¹.

ويقصد كذلك بمصطلح "رجال" المفهوم القرآني للرجولة، لا مجرد الإشارة إلى الجنس، كما ورد في قوله تعالى: { من المؤمنين رجال } [الأحزاب: 23]، وفي تاريخ الدعوة الإسلامية نساء بذلن جهودا متميزة في الدعوة إلى الإسلام، وساهمن في نشرها وتعليم مبادئها.

وبناء على كل ما ذكرناه، فإن مجال البحث في هذا العلم هو تتبع مسيرة تبليغ الإسلام، وتغيير ما طرأ في واقع الناس من فساد عقدي وأخلاقي واجتماعي وسياسي واقتصادي، على يد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومن سار على خطاهم من الدعاة إلى اليوم، و استخلاص ما تضمنته هذه المسيرة الطويلة من دروس وعبر.

3. منهج البحث في علم الدعوة ورجالها

إن منهج البحث في علم تاريخ الدعوة ورجالها منهج تاريخي، يعتمد الوصف والسرد كأداة لتسجيل الوقائع والأحداث المتعلقة برجال الدعوة، ولكنه لا يكتفي بها، بل يتبعها بالتحليل لهذه الوقائع، والاجتهاد في تفسيرها، وبيان أسبابها، ليربط بين المقدمات والنتائج، ثم يعمل على استخلاص العبرة أو الدرس أو القاعدة، لتتحول دراسة التاريخ من مجرد حكاية للماضي وأحداثه، إلى مدرسة تعطي دروسا للحاضر والمستقبل.

وهو منهج يحرص على تقديم إجابات وافية عن الأسئلة الآتية:

. السؤال أين؟، الذي تعرفنا الإجابة عنه بالإطار المكاني، والأوضاع السائدة فيه.

. السؤال متى؟، الذي تعرفنا الإجابة عنه بالإطار الزمني.

. السؤال كيف؟، الذي تعرفنا الإجابة عنه بطريقة وقوع الحادثة، والأسلوب الذي تطورت به.

. السؤال لماذا؟، الذي تعرفنا الإجابة عنه بالأسباب والعوامل.

¹. أبو الحسن علي الندوي، رجال الفكر والدعوة في الإسلام، ص. 30.

و هو المنهج الصحيح في التعامل مع التاريخ ووقائعه، وقد اعتمده القرآن الكريم حيث لا يكتفي بمجرد سرد الواقعة أو تسجيل الحدث، بل يتبع ذلك بالتنبيه إلى الأسباب والعوامل، ويستخلص الدرس والعبرة.

4. فوائد علم الدعوة ورجالها وثمراته:

يستفيد الدارس لهذا العلم فوائد كثيرة ، نذكر منها الفوائد الآتية:

أولاً. الفائدة العلمية والفكرية:

فالدارس لعلم الدعوة ورجالها يقرأ كتباً في مجالات علمية عديدة في : التاريخ، التفسير، الحديث، اللغة، السيرة، التراجم.. إلخ ، ليجمع مادة علمية تتعلق بشخصية وعمل رجل الدعوة الذي هو بصدده دراسة جهوده، فيثري بذلك معلوماته ومعارفه في تلك المجالات كلها.

كما أن الدارس لعلم الدعوة ورجالها لابد وأن يطلع على ما خلفه رجال الدعوة من آثار ومؤلفات، ليستخلص منها أهداف دعوتهم ومناهجها وأساليبها.

والمعلوم أنّ أكثر رجال الدعوة علماء وصلوا إلى درجة الاجتهاد، أو على الأقل تمكّنوا من استيعاب كمّ هائل من المعارف الشرعية والإنسانية، فالدارس لتراثهم يحصل ثروة علمية هائلة في حقول معرفية مختلفة، تزيد علمه وتعمقه فيما تلقاه من علوم من مصادرها.

وكمثال تطبيقي يمكن أن نذكر ما يجده الدارس لشخصيات مثل: ابن تيمية، محمد عبده، ابن باديس، من ثروة علمية متنوعة في التراث الذي خلفوه لنا.

بالإضافة إلى هذه الثروة العلمية يحصل الدارس لتاريخ الدعوة ورجالها شيئاً آخر مهما جداً، يتعلق بطريقة تفكير هؤلاء الأعلام، وأسلوبهم في توظيف ما لديهم من ملكات عقلية و معارف في فهم الوحي كتاباً وسنة، وفي التعامل مع ما خلفه علماء غيرهم من تراث من جهة، ومن جهة أخرى في فهم واقع المجتمعات التي عاصروها وتحركوا للدعوة والإصلاح فيها.

ثانياً. الفائدة التربوية:

بالإضافة إلى الفائدة العلمية والفكرية، يستفيد الدارس لتاريخ الدعوة ورجالها معلومات: كلمات ومواقف تسهم في بناء شخصيته، وتزكية نفسه، وتحسين أخلاقه.

ذلك أن تاريخ رجال الدعوة هو أولاً تاريخ الأنبياء الذين اصطفاهم الله عز وجل لكمالات وجدت فيهم بصورة لم تتحقق في غيرهم، ثم تولى سبحانه تربيتهم ورعايتهم ليجعل منهم النماذج المثلى للكمال الإنساني، ليكونوا أسوة لعباده.

وقد دعا الله عز وجل دعوة صريحة إلى التأسى بهم في آيات عديدة من كتابه، من ذلك قوله تعالى مخاطباً رسوله صلى الله عليه وسلم: { **أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ افْتَدِهْ** } [الأنعام: 90].

وتاريخ رجال الدعوة فيه دراسة لسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي جعله الله أسوة للعالمين، بسبب كمال خلقه { **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ** } [القلم: 4]، ودعا الناس إلى التأسى به في قوله سبحانه: { **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا** } [الأحزاب: 21].

كما أن تاريخ رجال الدعوة بعد الأنبياء المعصومين هو تاريخ رجال اختارهم الله عز وجل وشرفهم بخدمة دينه ودعوة الخلق إليه، وهو سبحانه أعلم بمن هو أهل لهذا التشريف من عباده، ويلاحظ كل دارس لشخصيات رجالات الدعوة بعد الأنبياء من الكمالات العقلية والنفسية والخلقية ما لا يلاحظه في تاريخ غيرهم من العلماء والأمراء والحكماء.

فالدارس لتاريخ هؤلاء الرجال يجد قيم الخير قد تجسدت فيهم، كما يدرك من خلالهم سبل تحصيلها والوصول إليها.

ثالثاً. الفائدة الدعوية:

فالدارس لتاريخ الدعوة ورجالها يجد إجابات عملية متنوعة عن الأسئلة التالية: ما الذي أدعو الناس إليه؟ وكيف أدعوهم إلى الله عز وجل؟ وكيف أتجاوز ما يقف في طريقي من عقبات؟، وذلك من خلال تجارب كثيرة ومواقف مختلفة مرت برجال الدعوة من الأنبياء ومن جاء بعدهم.

والإفادة من المناهج التي سلكوها في الدعوة أمر واجب على كل من يريد أن يوفر لدعوته شروط النجاح، فأحسن من دعا إلى الله عز وجل هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وخاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم، لأن دعوتهم موجهة ومسددة بالوحي الإلهي المباشر، الذي لا يُهمل صغيرة ولا كبيرة في توفير كل الشروط لتتم عملية البلاغ المبين على الوجه الأكمل.

أما تجارب رجال الدعوة بعد الأنبياء فهي وإن لم تكن معصومة من الوقوع في الخطأ، فإنها بسبب اهتدائها بالوحي الإلهي كتاباً وسنة، وإخلاص أصحابها في التوجه بقلوبهم إلى الله عز وجل، توفرت

فيها كثير من الشروط التي حققت لها نجاحات معتبرة لم تتمكن من تحقيقها كثير من الدعوات التي أهملت الاهتمام بالوحي الإلهي، أو قلّ إخلاص أهلها لله عز وجل.

فدراسة هذه التجارب بإظهار إيجابياتها للإفادة منها، والتنبيه على سلبياتها لتجنبها والاستغفار لأصحابها، أمر يساعد كثيرا في سير الدعوة الإسلامية بخطى متزنة وثابتة في هذا العصر، وتجنّب الدعاة بدأ أعمالهم من نقطة الصفر، وكأنهم لا يملكون رصيدا ولا تجربة سابقين، الأمر الذي يترتب عليه تضييع للوقت وإهدار للجهد.

يقول عما الدين خليل منبها إلى خطورة هذا المزلق: "إن بدأ التجربة دائما من نقطة الصفر دونما الثفات إلى مردوداتها التاريخية، يضع على الجماعة جهدا كبيرا ووقتا طويلا، ما كان لها أن تضيعهما لو التفتت إلى الماضي تستمد منه المواقف والإشارات"¹.

ولا تعني العودة إلى التجارب استحضارها من جديد في هذا العصر بنفس الصورة التي كانت عليها في السابق، دون مراعاة لمتغيرات الزمان والمكان، وإنما كما عبر عن ذلك "خليل" بدقة، باستمداد المواقف والإشارات، واستخلاص الموجهات منها، للإفادة منها في إطار عصرنا مع مراعاة المتغيرات المختلفة.

نختم حديثنا عن هذه الفائدة الدعوية بكلام نفيس قاله الإمام السخاوي رحمه الله مبينا الفائدة من دراسة التاريخ، قال رحمه الله عن التاريخ بأنه: "غزير النفع، كثير الفائدة، بحيث يكون من عرفه كمن عاش الدهر كلّهُ، وجربّ الأمور بأسرها، وباشر تلك الأحوال بنفسه، فيعزّر عقله، ويصير مجرّباً، غير غرّ (غافل) ولا عمّر (غير مجرّب) "².

من مجموع عناصر هذه المحاضرة تبين لنا أهمية علم الدعوة ورجالها، ومكانته الخاصة بين العلوم، كما تتضح لنا الحيوية التي يتسم بها لواقعيتها وتفاعله مع متغيرات الزمان والمكان.

1. عماد الدين خليل، المرجع السابق، ص. 6.

2. السخاوي، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم علم التاريخ، ص. 14.

مصادر الدعوة ورجالها

تمهيد

إنّ الهدف من جعل هذه المحاضرة المتعلقة بمصادر الدعوة ورجالها في مدخل هذا المقياس هو التعريف بهذه المصادر، وتسجيل بعض الملاحظات المنهجية التي تعين الدارس على حسن التعامل معها. ومما يؤكد ضرورة دراسة هذا الموضوع أنّ مصادر علم الدعوة ورجالها غير محددة في ركن خاص في المكتبة كغيرها من مصادر العلوم الأخرى (التفسير، الحديث، الفقه وأصوله، التاريخ..).

1. مفهوم مصادر الدعوة ورجالها:

أولاً. مفهوم المصادر: المصادر جمع

مصدر، والمصدر في اللغة ما ينشأ عنه الشيء أو يستمد

منه¹، أما في الاصطلاح فقد عرّفه المتخصّصون في المنهجية بأنه " أقدم ما يحوي مادة في موضوع ما"²، سواء كان الموضوع قديماً أم حديثاً.

وانطلاقاً من هذا التعريف يقسّمون المصادر إلى مصادر أولية هي أول ما تعامل مع الموضوع، ومصادر ثانوية أو تكميلية أو مراجع وهي التي تعاملت مع الموضوع إما بجمع ما هو مشتت ومفترّق، أو بالنقد والتمحيص، أو التحليل والاستخلاص.

ثانياً. مفهوم مصادر الدعوة ورجالها:

من المفهوم الذي حدّده المتخصّصون في المنهجية لمصطلح المصدر، ومن تحديدها للمجال الذي يبحث فيه علم الدعوة ورجالها في محاضرة أهمية دراسة علم الدعوة ورجالها، يمكن أن نقول إن المقصود بمصادر الدعوة ورجالها كلّ ما تضمّن مادة أولية أو تكميلية تساعدنا على استيعاب الجهود التي بذلت لتبليغ رسالة الإسلام إلى الناس، وتعليمهم إياه، وتطبيقه في واقع الحياة.

1- إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، 1/ 509 - 510.

2- عبد المنعم خفاجي، البحوث الأدبية منهاجها ومصادرها، ص. 75.

2. أهمية مصادر الدعوة ورجالها:

أولاً. أهمية المصادر عامة:

من المقرر عند المؤلفين في تاريخ العلوم، والمصنفين لأنواعها وأقسامها، أنّ البحث في أي مجال علمي لا يرتقي إلى درجة يكون له فيها اسم خاص به، يميّزه عن سائر العلوم، إلا إذا توفرت فيه ثلاثة شروط على الأقل:

أولها أن يكون له مجال واضح في البحث، وتكون له موضوعات محدّدة، وثانيها أن يكون له منهج للبحث فيه، وثالثها أن تكون له مصادر تستقى منها المادة العلمية لموضوعاته.

وإنما اشترط في العلم أن يكون له مصادر، لأن ذلك يدل على وجود تراكم معرفي فيه، يسمح بإدراك تميزه عن غيره من العلوم، وعلى توفره على قاعدة ينطلق منها الباحثون في دراساتهم في هذا المجال.

كما أنه من المقرر عند الباحثين أن أيّ موضوع لا يتمكّن الدارس من تناوله و الإحاطة به ما لم يكن هناك حد أدنى من المصادر الأولية التي تقدم مادة أولية فيه، فإذا انعدمت المصادر يصبح البحث عسيراً جداً في بعض المجالات العلمية، ومستحيلاً في البحوث التاريخية المرتبطة بالوثائق والمصادر السابقة.

ثانياً. أهمية مصادر الدعوة ورجالها:

بناء على ما ذكرناه آنفاً، فإن تميز تاريخ الدعوة ورجالها كعلم مستقل عن غيره من العلوم مرهون بوجود مصادر تتضمن مادة أولية تتعلق بموضوعاته ومجال بحثه، ومن دونها لا يعد علماً.

ومن هذه المصادر تستمد المادة العلمية الضرورية لدراسة جهود رجال الدعوة من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومن جاء بعدهم.

ومن هذه المصادر نأخذ صورة واضحة عن الأمور الأساسية التالية:

- كيف فهم رجال الدعوة الوحي والتراث والواقع .
- أهم التحديات التي واجهتهم.
- المناهج التي اعتمدها في الدعوة.
- الإنجازات التي حققوها، والإخفاقات التي آلت إليها بعض جهودهم.

وهو ما يمكننا من تقديم دراسات تتعلق بتاريخ الدعوة يستفيد منها رجال الدعوة في الحاضر والمستقبل.

3. وضعية مكتبة الدعوة ورجالها:

إنّ النظر إلى وضعية مكتبة تاريخ الدعوة ورجالها يكون بملاحظة ناحيتين مهمتين: الناحية الكمية والناحية النوعية.

أولاً. الناحية الكمية:

إذا نظرنا إلى مكتبة الدعوة ورجالها من ناحية كم المصادر التي تضمنت مادة علمية أولية أو تكميلية تتعلق بجهود رجال الدعوة، نلاحظ أنها حوت عددا لا بأس به من المصادر والمراجع، سواء تعلق الأمر برجال لدعوة من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أم برجال الدعوة من الصحابة ومن جاء بعدهم .

وقد لاحظ بعض الدارسين أن كتب التاريخ الإسلامي، قديمها وحديثها، التي كان من المفروض أن تولي اهتماما خاصا لتاريخ الدعوة الإسلامية ورجالها، لم تفعل ذلك، باستثناء إشارات قليلة وعابرة، وكان جل اهتمام المؤرخين منصبا على تاريخ الدول والملوك، وعلى الحوادث التي لها صلة بالسياسة والحكم¹.

وبسبب هذا التقصير من المؤرخين بقيت المادة العلمية لهذا التاريخ موزعة على كتب كثيرة تتعلق بمجالات علمية متعددة، كتب في الأدب، وكتب في علوم الدين، ومذكرات للدعاة والعظماء، وما كتبه التلاميذ عن شيوخهم، والكتب التي جمعت فيها خطبهم ورسائلهم، وكتب الحسبة ونقد المجتمع وإنكار البدع والمنكرات².

ولا يتمكن من جمع هذه المادة العلمية المشتتة من مصادرها، إلا من كانت له قدم راسخة في مجال البحث، وكان ذا صبر كبير على المطالعة، ودقة في الملاحظة، وكانت له خبرة واسعة بمصادر الثقافة الإسلامية.

فمكتبة تاريخ الدعوة ورجالها من ناحية الكم تتوفر على مادة علمية لا بأس بها، ولكن هذه المادة موزعة على كم هائل من المصادر والمراجع في مجالات علمية مختلفة، ولم تجمع بعد في دراسات متخصصة وشاملة، إلا محاولات قليلة لبعض الدارسين مثل محاولة العلامة أبي الحسن علي الندوي في كتابه "رجال الفكر والدعوة في الإسلام"، وعبد المتعال الصعيدي في كتابه "التجديد والمجددون".

1- أبو الحسن علي الندوي، رجال الفكر والدعوة في الإسلام، 28/1.

2- م.ن، 28/1.

ثانيا. الناحية النوعية:

نقصد بالناحية النوعية، نوعية المادة العلمية التي لاحظنا أنها موجودة بكم لا بأس به في مصادر متعددة، هل أحسنت هذه المصادر عرض هذه المادة واستثمارها أم لا؟. ونلاحظ من هذه الناحية أنه رغم الكم المعبر من المصادر والمراجع التي يمكن الإفادة منها في التعرّف على الدعوة ورجالها، فإنّ هذه المصادر اعتمدت فقط . في قسم كبير منها . على نقل الروايات، وإثبات الوقائع ووصف تطور الأحداث، وتقرير النتائج، دون الالتفات كثيرا إلى أسبابها ومقدماتها، ومحاولة التعرّف على ما كان وراءها من منهج محكم أو مختل في الدعوة. كما نلاحظ في هذه المصادر قصورا في نقد الروايات، حيث يسجل الغث والسمين جنبا إلى جنب، دون تمييز بين ما هو صحيح وما هو أسطورة وخرافة، ولا أساس له من الصحة. كما نلاحظ كذلك قصورا في تحليل الروايات تحليلا ينتج عنه الكشف عن القوانين والسنن الاجتماعية التي تحكم حركة التاريخ¹.

والخلاصة أن مكتبة تاريخ الدعوة ورجالها تتوفر على مادة علمية لا بأس بها، ولكنها موزعة على كم كبير من المصادر والمراجع، كما أن هناك قصورا في طريقة عرض هذه المادة من ناحية المناهج المستخدمة.

وإذا أردنا تحديد بعض أسباب هذا القصور يمكن أن نذكر الأسباب الآتية:

- إنّ سبب تشتت المادة العلمية المتعلقة بتاريخ الدعوة ورجالها . خاصة بعد الأنبياء . يعود إلى إهمال المؤرخين قديما وحديثا لتأريخ لجهود رجال الدعوة عبر العصور، وانصرافهم إلى تسجيل تاريخ الملوك والدول، والحوادث التي لها صلة بالسياسة والحكم.
- اهتم علماءنا في القرون الأولى بتدوين العلوم، وجمع التراث، وقد تطلب منهم هذا الإنجاز جهودا جبارة وأوقاتا كثيرة، وقد قاموا بدورهم أحسن قيام، ولم يمكنهم جهدهم ولا وقتهم من الانتقال إلى دراسة هذا التراث وتحليله ، إلا جهود قليلة قام بها بعضهم.
- انحطاط المستوى الفكري والعلمي في عصور الانحطاط حال دون استغلال ما جمع من تراث وروايات في العلوم الإسلامية عامة وفي تاريخ الدعوة ورجالها خاصة².

1- عبد الحلیم عویس، تفسیر التاريخ علم إسلامي، ص. 151، وضياء الدين العمري، المجتمع المدني في عهد النبوة، ص. 8-9.

2- مجالس التذکیر من کلام الحکیم الخبیر، ص. 396.

- انحطاط طرق التعليم، التي انحصرت في نقل الأفكار والمعلومات وتلقينها عن طريق الحفظ بالدرجة الأولى، وإهمال تعويد المتلقين على التحليل والنقد وبناء الأفكار.

- انشغال كثير من العلماء والمجددين بعموم أمتهم والعمل على إصلاح أوضاعها، عن الكتابة سواء عن أنفسهم أم عن غيرهم من رجال الدعوة، ويمكن إدراك ذلك بالنظر مثلا في التراجم التي ترجم بها العلامة عبد الحميد بن باديس لمجموعة من رجال السلف ونسائه، ولشخصيات بعض رجال الدعوة ولبعض الحركات، حيث نلاحظ تجاوزه للمنهج الوصفي في التعامل مع هذا التاريخ، وسلوكه لمنهج تحليلي أبرز من خلاله جوانب مهمة في تاريخ هؤلاء الرجال (انظر مثلا ترجمته لأبي ذر رضي الله عنه، وللإمام محمد رشيد رضا، وتعريفه بالحركة الوهابية)، ولولا انشغاله بإصلاحه واقع مجتمعه لتمكّن من تقديم دراسات موسّعة في هذا المجال، تثري مكتبة تاريخ الدعوة ورجالها من الناحية النوعية.

4. نماذج من مصادر الدعوة ورجالها:

يمكن تصنيف مصادر تاريخ الدعوة ورجالها بالنظر إلى الشخصيات التي تناولتها بالدراسة وفق التصنيف الآتي:

أولا. مصادر سير الأنبياء عليهم السلام: وتتمثل في القرآن الكريم وكتب التفسير، وكتب السنة النبوية، وكتب التاريخ، وكتب قصص الأنبياء، ونذكر نماذج عن بعضها:

فمن التفاسير المهمة: تفسير الطبري، تفسير ابن كثير، تفسير القرطبي، تفسير الشوكاني، تفسير المنار، تفسير الطاهر بن عاشور، تفسير القاسمي، في ظلال القرآن..

ومن كتب قصص الأنبياء: قصص الأنبياء لابن كثير، قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار، ومع الأنبياء في القرآن الكريم لعفيف طبارة، أنبياء الله لأحمد بهجت، في موكب النبيين لسيد أحمد الكيلاني، النبوة والأنبياء للصابوني، نظرات في أحسن القصص محمد السيد الوكيل، تاريخ الأنبياء في ضوء القرآن والسنة لمحمد الطيب النجار.

ثانيا. مصادر السيرة النبوية: ورأينا أن نفرادها وحدها لأهميتها الخاصة في تاريخ الدعوة ورجالها، ولوفرة المادة العلمية المتعلقة بها.

ومن أمثلة الكتب الهامة في هذا المجال: كتب الحديث المشهورة كالصحيحين والسنن، وكتب الشمائل للترمذي والبغوي وابن حبان، وكتب الدلائل لأبي نعيم والبيهقي، وكتب السيرة وهي كثيرة جدا، مثل:

سيرة ابن هشام، السيرة النبوية لابن كثير، والشفا للقاضي عياض، وزاد المعاد لابن القيم، وعيون الأثر لابن سيد الناس، ومحمد رسول الله للصادق عرجون، وفقه السيرة للبوطي والغزالي، والرسول لسعيد حوى، وخاتم النبيين لأبي زهرة، والرحيق المختوم للمباكفوري، والمنهج الحركي للسيرة النبوية لمنير الغضبان، والتفسير السياسي للسيرة النبوية لرواس قلعجي.

ثالثا. مصادر حياة الصحابة: و نذكر منها:

- كتب التراجم وهي كثيرة منها: الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، وأسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير، والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، وسير أعلام النبلاء للذهبي، وصفة الصفوة لابن الجوزي، وحياة الصحابة للكندهلوي، وموسوعة حياة الصحابييات لمحمد سعيد مبيض.

- كتب أفردت الصحابة بدراسات تحليلية مستفيضة تحت عناوين مختلفة، مثل: موسوعة عظماء حول الرسول لخالد عبد الرحمان العك، خلفاء الرسول ورجال حول الرسول لخالد محمد خالد، العقبريات للعقاد: الصديق، عمر، عثمان، علي، خالد، الإمام علي رابع الخلفاء لمحمد رضا، عبد الله بن مسعود الشخصية والسنة السيد زغلول، الفاروق لمحمد حسين هيكل، معاذ بن جبل عبد الحميد صالح حمدان.

رابعا. مصادر رجال الدعوة بعد ذلك: بداية من عصر التابعين إلى عصرنا ومن أمثلة المصادر المتعلقة بهم: رجال الفكر والدعوة في الإسلام لأبي الحسن علي الندوي، وزعماء الإصلاح في العصر الحديث لأحمد أمين، والتجديد والمجددون في الإسلام لعبد المتعال الصعيدي، وأعلام الإصلاح في الجزائر لمحمد علي دبوز، ومشاريع الإشهاد الحضاري لعبد المجيد النجار.

بالإضافة إلى هذه المصادر المتعلقة برجال الدعوة، نحتاج إلى دراسات اهتمت بتحليل الأحداث التاريخية، وعملت على كشف ما وراءها من سنن وقوانين، وهي دراسات تصنف تحت عنوان " فلسفة التاريخ".

ومن أمثلة هذه الدراسات: المقدمة لابن خلدون، بدائع السلك في طبائع الملك لابن الأزرقي، التفسير الإسلامي للتاريخ لخليل، تفسير التاريخ لعبد الحميد صديقي.

5. توجيهات منهجية:

بعد أن ذكرنا نماذج لمصادر تاريخ الدعوة ورجالها، نقدم بعض التوجيهات المنهجية التي تساعد على حسن التعامل مع هذه المصادر، والاستثمار الجيد لما تتضمنه من مادة علمية.

أولاً. ينبغي الحذر مما تموج به بعض التفاسير وكتب التاريخ وقصص الأنبياء من إسرائيليات لا يمكن الاعتماد عليها في كتابة تاريخ الدعوة ورجالها.

ثانياً. ينبغي الانتباه إلى ما يطبع بعض المصادر من توجهات وعظية تدفع أصحابها إلى التساهل في نقل الخرافة وتصديق الأساطير والترويح لها.

ثالثاً. عدم الاكتفاء بمصدر واحد في دراسة تاريخ رجال الدعوة، وتنويع المصادر قدر الإمكان لبناء صورة متكاملة عن هذا التاريخ.

رابعاً. الحرص على دراسة جهود رجال الدعوة في إطار العصر الذي وجدوا فيه، بما فيه من مشكلات ومسائل وملابسات، والحذر من تأثير الأفكار المسبقة والمقاييس الخاصة المتعلقة بالصورة المثلى للدعوة والإصلاح على هذه الدراسة.

نوح عليه السلام وجهوده الدعوية

1- نوح عليه السلام في القرآن :

ورد الحديث عن نوح عليه السلام وعن دعوته في ثمان وعشرين سورة من سور القرآن، في آيات بلغ مجموعها 141 آية، ونلاحظ أنه ذكر في أرباع القرآن كلها، ذكر في الربع الأول في سور: آل عمران والنساء والأنعام، وفي الربع الثاني في: الأعراف والتوبة ويونس وهود وإبراهيم والإسراء، وفي الربع الثالث في مريم والأنبياء والحج والمؤمنون والفرقان والشعراء والعنكبوت والأحزاب، وفي الربع الرابع في سور: الصافات، ص، غافر، الشورى، ق، الذاريات، النجم، القمر، الحديد، التحريم، وخصصت له في هذا الربع سورة سميت باسمه هي سورة نوح، وفي ذلك دلالة على مدى اهتمام القرآن الكريم بشخصية وجهد هذا النبي الكريم عليه أركى التسليم.

كما نلاحظ أن ذكره في السور المكية كان أكثر من ذكره في السور المدنية، حيث ذكر في اثنين وعشرين (22) سورة مكية وبآيات بلغ عددها (130) آية، ولم يذكر في السور المدنية إلا في ست سور مدنية في (11) آية.

والحكمة من وراء ذلك معلومة وهي مرتبطة بمقتضى حال الدعوة الإسلامية في مكة المكرمة وما كانت في أمس الحاجة إليه من توجيه بنماذج قريبة من الظروف التي تمر بها، فقد كانت الدعوة الإسلامية بحاجة إلى أن تذكر بنماذج في الدعوة كذب أصحابها وأوذوا واضطهدوا فلم يردهم ذلك عن إيمانهم ولم يصرفهم عن دعوتهم، وكانت دعوة نوح من أنسب النماذج لهذه المرحلة. وكذلك ينبغي أن نلاحظ هنا ملاحظة مهمة تتعلق بمنهج القرآن في عرض تاريخ دعوة نوح عليه السلام، حيث لا نجد القرآن يستطرد كثيرا مع التفاصيل الصغيرة للقصة، بل يكتفي بتحديد الخطوط العامة التي تسمح بالتعرف على هذه الدعوة واستخلاص الدروس والعبر منها. وهو منهج يلتزمه القرآن مع تاريخ رجال الدعوة من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جميعا، وكان من المفروض أن يلتزم به علماء المسلمين من مؤرخين ومفسرين ومؤلفين في مجال قصص الأنبياء، ولكن للأسف الشديد نلاحظ أن عددا معتبرا منهم لم يقف عند حدود هذا المنهج القرآني واستهوته التفاصيل الصغيرة التي تتعلق بجزئيات بسيطة في قصة النبي، بحجة أن هذه التفاصيل لا تعارض ما جاء في نصوص الكتاب والسنة الصحيحة، وهو ما ترتب عنه إهمال للمقصد الأساسي لقصص الأنبياء في القرآن الذي هو التفكير فيه وأخذ العبرة منه، كما أشار إلى ذلك قول الله عز وجل: {فاقصص القصص لعلهم يتفكرون} [الأعراف:176]، وقوله تعالى: {لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب} [يوسف:111].

2- نوح عليه السلام وقومه:

نعتمد في تعريفنا بنوح عليه السلام وقومه، والأوضاع التي كانت سائدة فيهم على آيات القرآن الكريم وبعض ما ورد من أخبار صحيحة، كما أننا في هذا التعريف نركز على ما نرى له صلة مباشرة بدعوة نوح عليه السلام، ونهمل الإشارة إلى تفاصيل يمكن مراجعتها في كتب قصص الأنبياء، فمحور دراستنا يتركز على شخصية نوح عليه السلام باعتباره داعيا إلى الله تعالى، وعلى قومه باعتبارهم المخاطبين بدعوته عليه السلام.

أولا: نوح عليه السلام:

نوح من أنبياء الله عز وجل الذين اصطفاهم على العالمين، يمر نسبه عليه السلام كما يذكر النسابون بإدريس عليه السلام وينتهي إلى آدم عليه السلام¹.

وكان بين نوح و آدم عليهما السلام عشرة قرون، روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام"².

و لا نجد في القرآن الكريم ولا في كتب قصص الأنبياء تفاصيل تتعلق بحياة نوح قبل نبوته، إلا إشارات سريعة نفهمها من سياق بعض الآيات، مثل كونه عليه السلام ولد من أبوين مؤمنين كما يشير إليه قول الله تعالى على لسانه عليه السلام وهو يدعو ربه: ﴿رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمناً﴾ [نوح:30]، وأنه عليه السلام كانت له زوجة اختارت عدم الإيمان به ووقفت في صف المعارضين لدعوته، كما يشير إليه قول الله تعالى ضاربا المثل للكافرين: ﴿وضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين﴾ [التحریم:10]، وأنه عليه السلام كان له أبناء منهم من آمن بدعوته ومنهم من كفر كما تدل على ذلك آيات سورة هود في مراجعة نوح عليه السلام لربه سبحانه في أمر ابنه الكافر، أما باقي النصوص القرآنية فنجد فيها حديثا عن اختياره للنبوة، وإشارة إلى بعض صفاته.

وإذا تأملنا هذه النصوص فإننا نستخلص منها الأمور التالية:

* أن الله عز وجل اصطفى نوحا عليه السلام على العالمين، كما أكد ذلك في قوله سبحانه: ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين، ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم﴾ [آل عمران:33].

وقد أشار بعض المفسرين إلى أن الاصطفاء بالنسبة للأنبياء نوعان: اصطفاء أولي وهو اختيار النبي لمقام النبوة، واصطفاء يأتي بعد ذلك يفضّل فيه النبي على العالمين، بعد تربية وإعداد إلهين، واستدل على هذا المعنى بقول الله عز وجل في شأن مريم عليها السلام: ﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين، يا مريم اقتني لربك واسجدي واركعي مع الراكعين﴾ [آل عمران:42-43].

1- محمد السيد الوكيل، نظرات في أحسن القصص،

2- البخاري، الجامع الصحيح،

ويستفاد من النص القرآني أن نوحا عليه السلام كان أفضل وأكمل إنسان وجد في عصره بشهادة خالق البشر المطلع على سرائر الناس وعلايتهم.

* تؤكد النصوص التالية: { إنا كذلك نجزي المحسنين، إنه من عبادنا المؤمنين } [الصفات: 79-80]، { كانتا تحت عبيد من عبادنا صالحين } [التحريم: 10]، { فكذبوا عبدنا.. } [القمر: 9]، { إنه كان عبدا شكورا } [الإسراء: 3]، أن نوحا عليه السلام كان مثالا للإنسان الذي عاش حياته عبدا لله بكل ما تعنيه العبودية من حب لله عز وجل وخشية منه، وإقبال عليه وإعراض عما سواه، كما أنه عليه السلام ارتقى إلى مقام العبد الشاكر لربه على أنعمه، وهو مقام عظيم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم الليل حتى تتفطر قدماه لبلوغه، فكان صلى الله عليه وسلم إذا أشفقت عليه زوجته وقالت له : هون عليك يا رسول الله، أليس الله قد غفر ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فكان عليه الصلاة والسلام يرد عليها بقوله: "أفلا أكون عبدا شكورا"¹، ولذلك شرف الله عز وجل نوحا عليه السلام بنسبته إليه سبحانه { عبدنا }.

* نستخلص من المدة الطويلة التي أمضاها عليه السلام يدعو قومه دون كلل أو ملل - وهي مدة تزيد على تسعمائة سنة كما يؤكد ذلك قوله سبحانه: { ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما } [العنكبوت: 13] - ما كان عليه من صبر عظيم لا يقدر عليه إلا أولو العزم من الرسل.

* في خطاب نوح عليه السلام لقومه بمثل قوله لهم: { إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم } [الأعراف: 58] وقوله: { إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم } [هود: 26]، وقوله: { وأنصح لكم } [الأعراف: 61]، ما يدل على ما كان يحمله عليه السلام في نفسه من حب لقومه، وما كان يشعر به من شفقة عليهم، وحرص كبير على هدايتهم.

هذه بعض المعالم التي تميزت بها شخصية نوح عليه السلام، وقفنا عندها وقفة مركزة، ويبقى الموضوع جديرا ببحث أوسع، وتحليل أعمق للكشف عن صفات نوح عليه السلام الداعي إلى الله عز وجل، ليتأسى بها كل من يدعو إلى الله تعالى.

ثانيا: قوم نوح عليه السلام:

¹ - مسلم، صحيح مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب إكثار العمال والاجتهاد في العبادة، حديث رقم: 7302.

ونركز في حديثنا عن قوم نوح عليه السلام على الأوضاع التي كانت سائدة فيهم من حيث عقائدهم وأعمالهم، معتمدين في تحديد هذه الأوضاع على نصوص القرآن وما صح من أخبار. من النصوص القرآنية التي قدمت لنا صورة عن هذه الأوضاع قول الله عز وجل على لسان الملائكة من قوم نوح: **{وقالوا لا تذرنا آلهتكم ولا تذرنا ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا}** [نوح:23-24]، الذي يؤكد انتشار ورسوخ الشرك وعبادة الأصنام فيهم، و قد روى الإمام البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن وداً وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا أسماء لرجال صالحين من قوم نوح، لما ماتوا صنع لهم القوم تماثيل تقديراً لصلاحهم، فلما جاءت الأجيال التي بعدهم وسوس لهم إبليس بعبادتهم فعبدوهم¹.

كذلك من النصوص القرآنية التي قدمت صورة عن الأوضاع التي كانت سائدة فيهم قول الله تعالى: **{ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقتناهم أجمعين}** [الأنبياء:75-76] حيث يصفهم بأنهم قوم سوء، وإذا تتبعنا النصوص القرآنية التي ورد فيها هذا الوصف بهذه الصيغة "سوء"، نجده ورد في موضعين في القرآن الكريم، في سورة مريم في قول الله تعالى: **{يا أخت هارون ما أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا}** [مريم:27]، وفي سورة الأنبياء في وصف قوم لوط عليه السلام في قوله تعالى: **{ولوطا آتيناها حكما وعلمنا ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين}** [الأنبياء:73].

ومدلوله في الموضعين واضح حيث يقصد به الفساد في العلاقات الجنسية وانتشار الفواحش، ومنه نفهم أن وصف القرآن الكريم لقوم نوح بأنهم قوم سوء فيه إشارة وتأكيد على فساد كبير في هذه الناحية من نواحي حياتهم، حيث ظهرت فيهم الفواحش وأعلنوا بها.

من النصوص التي تتعلق بهؤلاء القوم قول الله تعالى: **{وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين}** [الذاريات:46]، فهم قوم فاسقون.

والفسق في اللغة الخروج يقال فسقت الرطبة عن قشرها والفأرة من جحرها أي خرجت²، وفي الشريعة الخروج عن طاعة الله عز وجل بارتكاب الكبيرة³، ومآل معناه في القرآن الكريم الخروج عن

1- ابن كثير، قصص الأنبياء، ص.

2- ابن منظور، لسان العرب،

3- أبو السعود، التفسير،

زي العبودية كما يؤكد قول الله تعالى: {ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون} [الحشر:19].

وقد بين القرآن الكريم أصول ما يترتب على الفسق من فساد في قوله تعالى: {وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون} [البقرة:25-26].

فقوم نوح عليه السلام قوم فاسقون بمعنى أنهم نسوا أنفسهم، وخرجوا عن زيّ عبوديتهم، بنقضهم للعهود، وقطعهم لما أمر الله به أن يوصل، وإفسادهم في الأرض.

كما وصف قوم نوح عليه السلام بالظلم والطغيان، وبين القرآن الكريم أنهم تجاوزوا في ذلك قوم عاد وثمود الذين عرفوا في التاريخ بشدة الظلم والطغيان، فقوم نوح عليه السلام أظلم وأطغى منهم كما يؤكد قول الله تعالى: {وأنه أهلك عادا الأولى وثمود فما أبقى وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى} [النجم:49-51].

كما وصف نوح عليه السلام قومه بالجهل في قوله خطابا لهم: {ولكني أراكم قوما تجهلون} [هود:29].

وإذا تأملنا هذا الوصف في السياق الذي ورد فيه وهو قول الله تعالى في سورة هود: {فقال الملاء الذين كفروا من قومه ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين، قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون، ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجري إلا على الله ، وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكني أراكم قوما تجهلون، ويا قوم من ينصروني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون} [هود:27-30]، نجد أن المقصود بالجهل فساد الموازين التي كان يحتكم إليها قوم نوح في النظر إلى بعضهم وتقييم الفرد منهم، فقد كانت موازين تعتمد الجانب المادي كأساس في إعطاء الفرد مكانة معينة أو حرمانه منها، وبدل على ذلك حكمهم ببطلان دعوة نوح بسبب عدم أفضلية نوح ومن تبعه عليهم من الناحية المادية، وكون الأتباع من الأراذل كما سموهم، وطلبهم من نوح عليه السلام طردهم من حوله ليتمكنوا هم من اللحاق به، فرفض نوح عليه السلام ووصفهم بأنهم قوم يجهلون المقاييس الصحيحة في تقييم الناس.

3- دعوة نوح عليه السلام:

ونقف عند الجهود التي بذلها نوح عليه السلام في ثلاث محطات نحاول فيها التعرف على الأهداف التي قصدت دعوته إلى تحقيقها، وأهم الصعوبات التي واجهتها، ومنهج نوح عليه السلام في تجاوز هذه الصعوبات وتبليغ رسالة ربه.

أولاً- أهداف دعوة نوح عليه السلام:

تصنف أهداف الدعوات إلى أهداف كلية بعيدة، وهي الأهداف النهائية التي يراد الوصول إليها، وأهداف مرحلية هي عبارة عن أهداف قريبة تعمل الدعوة من خلالها على تجاوز بعض العوائق أو الصعوبات التي تحول دون الوصول إلى الأهداف الكلية البعيدة¹.

وبالتدبر في النصوص القرآنية التي حدثتنا عن نوح عليه السلام ودعوته يمكن استخلاص أهداف دعوة نوح عليه السلام، وتصنيفها إلى أهداف كلية بعيدة وأهداف مرحلية بناء على كون الأهداف الكلية هي أهداف مشتركة بين دعوات جميع الأنبياء، والأهداف المرحلية تختلف باختلاف الظروف التي تحيط بكل دعوة.

أ - الأهداف الكلية:

وهي كما أسلفنا أهداف مشتركة بين دعوات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جميعاً، وتتمثل في الأهداف الآتية:

* **إقامة الحجّة على الناس:** والدليل على كون هذا الهدف هدفاً كلياً، وليس هدفاً مرحلياً، أنه غير مرتبط بظروف قد تتغير بتغير الزمان والمكان، وأن الإشارة إليه كهدف لدعوة نوح عليه السلام كان في إطار بيان الهدف من بعثة مجموعة كبيرة من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وختمت الآيات التي أشارت إلى ذلك بقوله تعالى: **{رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل}** [النساء:164].

* **تعبيد الناس لله وحده:** ونستخلص هذا الهدف من الدعوة المتكررة التي كان نوح عليه السلام يتوجه بها إلى قومه: **{يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره}**، **{أن اعبدوا الله}**.

1- منير شفيق: ثوابت التغيير ومتغيراته، مجلة الإنسان، العدد 1، السنة الأولى، شعبان 1410هـ- / مارس 1990، ص. 31.

وصنفنا هذا الهدف مع الأهداف الكلية لأنه كان هدفا مشتركا دعا إليه الأنبياء عليهم السلام جميعا كما تدل على ذلك النصوص القرآنية الكثيرة التي سجلت لنا دعوتهم لأقوامهم، وهو ما لخصه القرآن الكريم في قوله تعالى: {ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت} [النحل:36].

والمقصود بتعبيد الناس إشعارهم بحقيقتهم ليدركوها ويعيشوا على مقتضاها، وهي كونهم عبيد لا يملكون من أمر أنفسهم شيئا، وأن حاجتهم إلى ربهم دائمة لا يمكنهم الاستغناء عنه سبحانه في شؤون حياتهم كلها، فكما أن رزقهم بيده فكذلك صلاح أمورهم كلها منوط به سبحانه، مرتبط بالالتزام بأمره ونهيه، وأن ما يمسه من فساد في سياستهم أو اقتصادهم أو اجتماعهم راجع إلى خروجهم عن زي عبوديتهم، واغترارهم بأنفسهم ومحاولتهم الاستغناء عن ربهم.

* تحقيق التقوى فيهم: ووردت الإشارة إلى هذا الهدف في قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام لقومه: {أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا}، {فقال يا قو اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون} [الأعراف:62]، {كذبت قوم نوح المرسلين إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون، إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون} [الشعراء:105-108]، {أن اعبدوا الله واتقوه} [نوح:3].

واعتبرنا تحقيق التقوى هدفا كلياً لأنها كانت وصية الله عز وجل لعباده عبر التاريخ نقلها إليهم أنبياءه ورسله عليهم الصلاة والسلام، كما تؤكد ذلك آيات عديدة منها قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه لقومه: {وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون} [العنكبوت:16]، {ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله} [النساء:131].

والتقوى تأتي كثرة لتزكية النفس بفعل الطاعات والابتعاد عن المنكرات، فإذا وجدت في نفس الإنسان سهل عليه بعد ذلك الاستجابة لأمر الله والالتزام بشريعته في شؤونه كلها، يدل على ذلك وصف القرآن بأنه هدى للمتقين، وغياب التقوى يعني ضعف الإنسان أمام نفسه وغرائزه، وميله للإفساد في الأرض كما ينبه عليه قول الله تعالى: {ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا، ويشهد الله على ما في قلبه، وهو ألد الخصام، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك

الحرث والنسل، والله لا يحب الفساد، وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم، فحسبه جهنم، وليس المهاد} [البقرة: 202-204].

قال سيد قطب رحمه الله مبينا قيمة التقوى وثمرتها: "وتقوى الله.. هي الضمانة الحقيقية لاستقامة الناس على ذلك المنهج، وعدم التفلّت عنه هنا أو هناك، وعدم الاحتيال عليه أو الالتواء في تنفيذه، كما أنها هي مبعث الخلق الفاضل المنظور فيه إلى الله، بلا رياء ولا تظاهر ولا ممارسة"¹.

إقامة الدين وعدم التفرق فيه:

وقد وردت الإشارة إلى هذا الهدف في قوله تعالى: { شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه } [الشورى: 13]، وواضح من السياق أن هذا الهدف هدف كلي لأنه مشترك بين الأنبياء عليهم السلام، ولأن الدين المطلوب إقامته في أصوله واحد وإن اختلفت الشرائع.

والمقصود بإقامة الدين وعدم التفرق فيه حفظه بالاتباع والعمل به، والعمل على أن يكون الحاكم في حياة الناس في شتى مناحيها، والحرص على عدم التفرق في هذا العمل والتحول إلى فرق متصارعة، وهو ما حذرت منه آيات الدعوة في سورة آل عمران خطابا للدعاة من أمة النبي صلى الله عليه وسلم: { ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون، ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم } [آل عمران: 104-105]، وقوله تعالى: { إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء } [الأنعام: 159].

* تحقيق العدل في حياة الناس:

يشير إلى هذا الهدف قول الله تعالى: { لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط } [الحديد: 24].

فقد بين هذا النص القرآني أنّ من أهداف بعثة الرسل إنزال الكتب التي تتضمن شريعة الله لعباده، التي تعتبر الميزان الذي به يتحقق العدل في حياة الناس، يقول سيد رحمه الله موضحا هذا المعنى: "فكل الرسائل جاءت لتقرر في الأرض وفي حياة الناس ميزانا ثابتا ترجع إليه البشرية لتقوم الأعمال

¹ - في ظلال القرآن،

والأحداث والأشياء والرجال، وتقييم عليه حياتها في مأمن من اضطراب الأهواء واختلاف الأمزجة، وتصادم المصالح والمنافع، ميزانا لا يحابي أحدا لأنه يزن بالحق الإلهي للجميع، ولا يحيف على أحد لأن الله رب الجميع.

...وبغير هذا الميزان الإلهي الثابت في منهج الله وشريعته، لا يهتدي الناس إلى العدل، وإن اهتموا إليه لم يثبت في أيديهم ميزانه، وهي تضطرب في مهب الجهالات والأهواء "1.

فمن أهداف دعوة نوح عليه السلام إرساء هذا الميزان في حياة قومه ليتحقق العدل فيها، ومن دون اتباع شريعته لن يقوم الناس بالقسط، وصدق الله العظيم حين يقول: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون} [المائدة:47]

* الوصول بهم إلى مغفرة الله في الدار الآخرة:

وقد أشار إلى هذا الهدف قول الله عز وجل على لسان رسله عليهم السلام يخاطبون أقوامهم: {أفي الله شك فاطر السموات والارض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم} {إبراهيم:13}، وعلى لسان نوح عليه السلام لقومه: {يغفر لكم من ذنوبكم} [نوح:4]، وقوله تعالى: {واني كلما دعوتهم لتغفر لهم} [نوح:7].

قال بعض المفسرين تعليقا على قوله تعالى: {يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى}: " {يغفر لكم..} إشارة إلى غاية الدعوة الأخروية، وقوله {ويؤخركم..} إشارة إلى غايتها الدنيوية، وقدم ما للآخرة على ما للدنيا لأن الآخرة هي المقصودة بالذات وهي دار القرار"2.

وقال: " فربوبيته تعالى لكل شيء المستوجبة لتدبيرها أحسن تدبير وهدايته كل نوع إلى غايته السعيدة تستدعي أن تُعنى بالناس بإرسال رسل منهم إليهم ودعوته الناس بلسان رسله إلى الإيمان والعمل الصالح ليتم بذلك سعادتهم في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فبالتخلص من النكال والعقوبة القاضية عليهم، أما في الآخرة فبالمغفرة الإلهية بمقدار ما تلبسوا به من الإيمان والعمل الصالح"3.

* إنقاذهم من العذاب وتأخيرهم إلى أجل مسمى:

1- سيد قطب، في ظلال القرآن،

2- الطبطاوي، الميزان،

3- الميزان،

وقد أشار إلى هذا الهدف قول الله عز وجل: {قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى} [إبراهيم:13]، وقوله تعالى على لسان نوح عليه السلام: {أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون} [الأعراف:62].

فقد كان من أهداف دعوة نوح عليه السلام الكلية إنقاذ قومه من العذاب الذي كانوا يتخبطون فيه بسبب شركهم وفسقهم وجهلهم وطغيانهم.

ويذكر بعض المفسرين تعليقا على هذه الآية وما في معناها من آيات أن الأجل نوعان: أجل موقوف معلق، وأجل مسمى لا يؤخر، قال صاحب الميزان: " بين المعاصي والمظالم وبين النكال والعقوبة الإلهية التي تنتهي إلى الهلاك ملازمة، فلو لم يفسد المجتمع وداموا على الصلاح الفطري لم يخترمهم الهلاك ولم يفاجئهم النكال، وعاشوا على ما قدر لهم من الآجال الطبيعية"¹.

ويؤكد هذا المعنى قول الله تعالى متحدثا عن قوم يونس: {فلو لا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين} [يونس:98].

ب- الأهداف المرحلية:

وقلنا إننا تقصد بها الأهداف القريبة التي يراد من وراء الوصول إليها تجاوز بعض الصعوبات التي يطرحها الواقع أمام الدعوة تحول دون بلوغ الأهداف الكلية البعيدة. وإذا تأملنا النصوص القرآنية التي أشارت إلى أهداف دعوة نوح عليه السلام، يمكن أن نحدد هدفين مرحلين لهذه الدعوة هما:

* **القضاء على ظاهرة الشرك:** فقد كان الشرك المنتشر في قوم نوح عليه السلام عقبة كؤودا تحول دون سيرهم في طريق العبودية والتقوى، لذلك كان من اللازم تخليصهم من رجس الأوثان أولا، والدخول بهم إلى صفاء التوحيد.

وقد أشارت الآيات العديدة التي نقلت إلينا دعوة نوح عليه السلام لقومه أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا إلى هذا الهدف، وأشار إليه بوضوح قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام: {إني لكم نذير

1- الميزان،

مبين أن لا تعبدوا إلا الله} [هود:25]، كما أشارت إليه الدعوة المضادة للملأ من قومه الذين حرضوا قومهم للثبات على الشرك، وعدم الاستماع إلى ما يدعو إليه نوح عليه السلام، وهو ما جاء في قوله تعالى: {وقالوا لا تذرنا آلهتكم، ولا تذرنا ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا} [نوح:24]

* النجاة بمن آمن معه: فبعد أن تعذر على نوح عليه السلام إنقاذ جميع قومه من عذاب الله، بسبب إصرارهم على شركهم وفسادهم، أمر أن يصنع السفينة لينجو بمن آمن معه، وقد أشار إلى هذا الهدف المرحلي قوله تعالى مخاطبا نوحا عليه السلام: {وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من آمن، فلا تبتئس بما كانوا يفعلون، واصنع الفلك بأعيننا ووحينا، ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون} [هود:37].

ثانيا- التحديات التي واجهتها دعوة نوح عليه السلام:

يمكن تصنيف التحديات التي تواجه أي عمل دعوي إلى تحديات تتعلق بالدعوة وقيادتها، وتحديات تتعلق بقاعدة الدعوة، وتحديات تتعلق بقاعدة المجتمع.

أ-التحديات الخاصة بالدعوة وقيادتها:

إذا تدبرنا النصوص القرآنية المتعلقة بدعوة نوح عليه السلام نجد أنها أشارت إلى مجموعة من التحديات التي واجهت نوحا عليه السلام، يمكن أن نجملها فيما يلي:

1- الحرب النفسية:

وقد اتخذت هذه الحرب النفسية ضد نوح عليه السلام ودعوته صورا وأشكالا متعددة، يمكن الوقوف عند بعضها في النقاط الآتية:

* اتهامه عليه السلام بالضلال المبين: كما يشير إلى ذلك قول الله تعالى: {قال الملائكة من قومه إنا لنراك في ضلال مبين} [الأعراف:59].

* اتهامه عليه السلام بالكذب: كما أشار إلى ذلك قوله تعالى على لسان الملائكة: {وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين} [هود:27].

* رميه بالجنون: كما يفصح عن ذلك قوله تعالى على لسان الملائكة: {إن هو رجل به جنة فتربصوا به حتى حين} [المؤمنون:25].

* اتهامه بالطموح إلى السلطة والمال: فقد أشاع الملائكة في عامة الناس أن نوحا عليه السلام لا هدف له من وراء دعوته إلا الطمع في التسلط عليهم، والحصول على بعض الامتيازات المادية، مع أنه لا يملك من الميزات ما يؤهله للسيادة عليهم، وقد أشار إلى هذه الشائعة قول الله تعالى: {فقال الملائكة الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم} [المؤمنون:24].

* التفتن في السخرية منه: قال الله تعالى مسجلا ذلك: {وكلما مر عليه ملاء من قومه سخروا منه} [هود:38].

* العمل على تثبيط عزيمته: فقد كان الملائكة الذين كفروا من قومه يتدخلون عند اتصال نوح عليه السلام بقومه لدعوتهم، فيعلنون كفرهم بما يدعو إليه لإفشاله والحيلولة بينه وبين عامة قومه.

أشار إلى هذا الأسلوب قول الله تعالى: {...جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم، وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به} [إبراهيم:12].

2- الأذى والاضطهاد:

بالإضافة إلى الحرب النفسية، اتبع الملائكة من قوم نوح سياسة إلحاق الأذى والاضطهاد مع نوح عليه السلام، محاولة منهم منعه من الدعوة، والحيلولة بينه وبين الناس.

ومن أنواع الأذى والاضطهاد التي ألحقوها به عليه السلام نذكر ما يلي:

* منعه من الدعوة باستخدام القوة: وقد أشار إلى هذا النوع من الأذى قول الله تعالى متحدثا عن الرسل وموقف أقوامهم منهم، ومنهم قوم نوح: {ألم ياتكم نبا الذين من قبلكم قوم نوح وعاد

وتمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله، جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم، وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به، وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب {إبراهيم:12}.

* الضرب: فقد ذكر بعض المفسرين تعليقا على قوله تعالى: {وقالوا مجنون وازدجر} {القمر:9} أن نوحا عليه السلام كان يتعرض للخنق والضرب من قبل سفهاء قومه. * التهديد بإخراجه وطرده ونفيه: وقد أشار إلى ذلك قول الله تعالى: {وقال الذين كفروا لرسولهم لنخرجنكم من أرضنا أو لنعودن في ملتنا} {إبراهيم:16}.

* التهديد بقتله: بعد أن فشلت كل محاولاتهم لإيقاف نوح عليه السلام عن الدعوة، لجأوا إلى تهديده بالقتل كما أشار إليه قول الله تعالى: {قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين} {الشعراء:116}، والرجم شر أنواع القتل، كما أشار إليه قوله تعالى: {كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه} {غافر:4}.

3- التشكيك في دعوته:

فقد عمل الملأ من قومه على تشكيك العامة في صحة ما يدعو إليه نوح عليه السلام من خلال إلقاء الشبهات والجدال بالباطل، وقد أشار إلى هذا الأسلوب قوله تعالى: {وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق} {غافر:4}، ومن جدالهم لنوح عليه السلام وطرحهم لهذه الشبهات حول دعوته نذكر الأمثلة التالية:

* نوح ليس رسولا لأنه بشر: فقد شككوا عامة الناس في أمر كونه رسولا، وزعموا أن الرسول لا يمكن أن يكون إلا ملكا، لا بشرا يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الشبهة في قوله تعالى: {فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا} {هود:27}، وفي قوله تعالى: {فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آباءنا الأولين} {المؤمنون:24}.

* الدعوة الحق لا يكون أتباعها من الأراذل: فقد عمل الملأ على بث هذه الشبهة في نفوس العامة، فزعموا أن من علامات صحة أي دعوة وصدقها أن يكون أتباعها من علية القوم، لأنهم هم من يملك القدرة على التمييز بين الحق والباطل، أما إذا كان الأتباع من فئات منحطة في المجتمع فكريا واجتماعيا واقتصاديا، فإن ذلك يعتبر أكبر دليل على بطلانها، لأن هذه الفئات لا يمتلك أصحابها عقولا راجحة، ومنطلقها في مواقفها يتأثر بأوضاعها النفسية والاجتماعية.

وقد أشار إلى هذه الشبهة قول الله عز وجل: {فقال المأء الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي} [هود:27]، وقوله تعالى: {قالوا أنومن لك واتبعك الأراذلون} [الشعراء:111].

* الدعوة الحق لا تكون مخالفة لما كان عليه الآباء الأولون: فقد أشاع المأء الذين كفروا في عامة القوم أن ما يدعو إليه نوح عليه السلام لا يمكن أن يكون إلا باطلا، لأنه خالف في ذلك ما كان عليه الآباء الأولون المشهود لهم بالعقول الراجحة، والنفوس الصالحة، وقد أشار إلى هذه الشبهة قول الله تعالى: {ما سمعنا بهذا في آباءنا الأولين} [المؤمنون:24].

* الدعوة الحق تحسن من أوضاع أتباعها المادية: إن مقياس صحة أية دعوة كما زعم المأء من قوم نوح أن تسهم في تغيير أوضاع أتباعها المادية، فإن لم يتحقق ذلك فهو دليل على بطلانها. وقد أشار إلى هذه الشبهة قوله تعالى على لسان المأء: {وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين} [هود:27]، قال ابن كثير مفسرا لقولهم هذا: "يقولون ما رأينا لكم علينا فضيلة في خلق ولا خلق ولا رزق ولا حال لما دخلتم في دينكم"¹.

والملاحظ أن المأء انطلقوا في إقائهم لهذه الشبهات حول دعوة نوح عليه السلام من منطلق مادي صرف، واعتمدوا الحس كآداة وحيدة للحكم على هذه الدعوة، ولذلك تكرّر قولهم: "ما نراك" - "وما نرى".

ب- التحديات المتعلقة بقاعدة الدعوة:

المقصود بقاعدة الدعوة من استجاب للدعوة، وكان من أتباعها، وأطلق عليهم هذا الوصف لبيان أنهم يمثلون الركيزة التي تعين قيادة الدعوة في نشر الدعوة، وإعطاء صورة حيّة وواقعية عنها. ويختلف حجم هذه القاعدة، وينقص أو يزيد عدد أفرادها، باختلاف الظروف المحيطة بها والتحديات التي تواجهها.

وقد كان عدد أفراد هذه القاعدة في دعوة نوح عليه السلام قليلا كما يوضحه قوله تعالى: {وما آمن معه إلا قليل} [هود:40]، وأكبر عدد ذكره الرواة هو أنهم كانوا ثمانين شخصا.

¹ - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم،

وإذا علمنا أن نوحا عليه السلام لبث في قومه يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاما، فإننا نستنتج أن معدل عدد المستجيبين لدعوته في كل خمس وتسعين سنة هو على أكبر تقدير ثمانية أشخاص، وهو عدد قليل جدا إذا اعتبرنا طول المدة، مما يدل على عظم التحديات التي كان يتعرض لها الأتباع. وقد كانت هذه القاعدة مكونة في أكثريتها من فئات ضعيفة اقتصاديا واجتماعيا كما يدل على ذلك قول الملائ من قوم نوح: ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل﴾ [هود:27]، وهذا هو شأن دعوات الأنبياء عليهم السلام يكون أتباعها في البداية الضعفاء، والغالب على الأشراف والكبراء معارضتها، وهو ما يؤكد قول الله تعالى: ﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾ [الزخرف:22].

يمكن أن نذكر من التحديات التي واجهت هذه القاعدة المؤمنة التحديات التالية:

* السخرية منها:

فقد عمل الملائ من قوم نوح عليه السلام على تعبئة المجتمع ضد هذه الفئة، وذلك بالسخرية منها والخط من مكانتها عند الرأي العام، أشار إلى هذا التحدي قول الله تعالى على لسان نوح عليه السلام خطابا للملائ من قومه: ﴿إن تسخروا منا﴾ [هود:38]، وقوله: ﴿ولا أقول للذين تزديروا أعينكم﴾ [هود:31]، كما دلّ عليه وصف الملائ لأفراد هذه الفئة بأنهم أصحاب عقول صغيرة لا تحسن التفكير والتدبر في الأمور، كما أشار إلى ذلك خطابهم لنوح عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي﴾ [هود:27]، كما يدل عليه كذلك وصفهم بأنهم أراذل كما أشار إليه قول الله تعالى: ﴿أنؤمن لك واتبعك الأراذلون﴾ [الشعراء:111]، وقوله تعالى: ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا﴾ [هود:27]، والأراذل في اللغة المرغوب عنه لرداءته¹، وقد ورد هذا الوصف في القرآن الكريم في أربعة مواطن موطنان يتعلقان بما وصف به أتباع نوح عليه السلام، وفي موطنين آخرين في الحديث عن الأطوار التي يمر بها الإنسان، في قوله تعالى: ﴿والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم بعد علم شيئا﴾ [النحل:70]، وفي قوله تعالى: ﴿ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل

¹ - ابن منظور، لسان العرب

العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً} [الحج:5]، ومن هذين الموضوعين يتبين لنا معنى آخر للأردل وهو الشخص الذي فقد موازين التمييز بين الأمور، وأصبح لا يعلم شيئاً. كما استند الملائة في سخرتهم من هذه الفئة على المقياس المادي، فقد كانوا يستكبرون بما آتاهم الله من فضله، وكانوا يسخرون من الذين آمنوا لأنهم ليسوا من أصحاب الفضل، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى على لسانهم: {وما نرى لكم علينا من فضل} [هود:27].

* اتهامها بالكذب في إيمانها:

فقد أشاع الملائة بين الناس أن هذه الفئة لا تريد من وراء ما تدّعيه من إيمان إلا أن يصبح لها فضل ومال لم تستطع أن تحققه بالأسباب العادية، وقد أشار إلى هذا الاتهام قوله تعالى على لسانهم: {وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين} [هود:27].

كما حاولوا إقناع نوح عليه السلام بأن هؤلاء الأتباع ليسوا صادقين في الإيمان به وبدعوته، وإنما التحقوا بها طمعا في تغيير أوضاعهم، وأنه تصدر عنهم أعمال فاسدة تدل على صحة هذا الحكم الذي حكموا به عليهم، ومما يدل على هذا الأمر قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام وهو يخاطب هؤلاء الملائة: {وما علمي بما كانوا يعملون إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون} [الشعراء:112-113]، وقوله تعالى: {وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقو ربهم} [هود:29].

* محاولة عزلها عن نوح عليه السلام:

فقد عمل الملائة من قوم نوح عليه السلام على إبعاد هذه القاعدة عن نوح عليه السلام، وعرضوا عليه إن هو قبل طردهم عنه أن يستجيبوا هم لدعوته ويساندوه بما يملكون من مال ونفوذ. وقد أشار إلى هذه المحاولة قول الله تعالى على لسانهم وهم يخاطبون نوحا عليه السلام: {أنؤمن لك واتبعك الازدولون} [الشعراء:111]، وكذلك دل عليها قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام ردا على طلبهم: {وما أنا بطارد الذين آمنوا} [هود:29].

وكان الملائة يهدفون من وراء هذه المحاولة إلى حرمان هذه القاعدة من مصدر قوة إيمانها، وسبب مهم من أسباب ثباتها على إيمانها، الذي كانت تأخذه من مجالستها لنوح عليه السلام وعملها بتوجيهاته، فيسهل بعد ذلك استيعابها وإعادةها إلى الشرك والمجتمع وتقاليده الجاهلية من جديد، وكذلك حرمان نوح عليه السلام من هذه الفئة المؤمنة التي كانت تشد أزره وتعينه في تبليغ رسالة ربه.

* طول فترة اضطهادها:

لاشك أن هذه القاعدة تعرضت لأنواع من الأذى والاضطهاد، امتدت لفترات طويلة من الزمن، ولم يكن هناك ما يدفع عنها هذا العذاب، بسبب قلة عدد أفرادها، و كونهم من الفئات الضعيفة التي ليس لها من يحميها.

ومما يدل على شدة ما كانت تتعرض له من اضطهاد ما ورد في شكوى نوح عليه السلام لربه حين قال عليه السلام متضرعا لربه - كما ذكر القرآن على لسانه-: { إنك إن تذرهم يضلوا عبادك } [نوح:29]، فقد خشي نوح عليه السلام إن استمر العذاب بأتباعه وطال أمده أن يكون سببا في ردتهم وضلالهم.

كما أن قوله تعالى على لسان الملائم مهديين نوحا عليه السلام: {لئن لم تنته لتكونن من المرجومين} [الشعراء:116]، يفهم منه أن هناك من تعرض للرجم من المؤمنين بنوح عليه السلام، فحذره الملائم أن يكون مصيره عليه السلام كمصيرهم.

ج - التحديات المتعلقة بقاعدة المجتمع:

إن قاعدة المجتمع هي التي تكون موضع تحاذب بين قيادة الدعوة والقيادة المعارضة لها، حيث تقع في اضطراب كبير ، وغالبا ما تنجح القوى المضادة للدعوة في تعبئتها لصالحها في المراحل الأولى من الصراع، بل ربما نجحت في استمرار ضمان هذه التعبئة في كافة مراحل الصراع كما هو الحال بالنسبة لدعوة نوح عليه السلام.

ويمكن أن نذكر ثلاث تحديات أساسية واجهتها هذه القاعدة، حالت بينها وبين الاستجابة لدعوة نوح عليه السلام:

* رسوخ الشرك فيهم:

فقد كان الشرك مهيمنا على عقولهم وقلوبهم إلى درجة أنه لم يعد بإمكانهم الاستماع إلى من يدعوهم لخلاف ما عهدوه، ويدل على هذه الحال التي كانوا عليها قول نوح عليه السلام في شكواه لربه: {قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا فلم يزدده دعائي إلا فرارا، وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا} [نوح:5-7]، كما يدل عليه كذلك قول نوح عليه السلام داعيا عليهم بالهلاك: {إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا} [نوح:29].

ويتضح إصرارهم على الشرك، ورسوخه فيهم، كما أكد نوح عليه السلام هنا في شكواه، في رفضهم مجرد الاستماع إلى دعوته، وفي حرصهم على تنشئة أبنائهم على الشرك، حتى يصبح الشرك جزءاً من شخصيتهم ، وكأنهم ولدوا به.

* معاناة نفوسهم من الكبر:

من أهم الموانع التي حالت بين قوم نوح عليه السلام وبين الاستجابة لدعوته، ما كانت عليه نفوسهم من كبر أو استكبار بالتعبير القرآني الدقيق الذي أشار إليه قول نوح عليه السلام لربه: **{واستكبروا استكبارا}** [نوح:29].

ويعد الاستكبار أو التكبر من أهم الموانع النفسية التي تحول دون قبول الحق ، وهو ما يؤكد قول الله تعالى: **{سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها}** [الأعراف:146].

* هيمنة المأل عليهم:

فقد استطاع المأل الذين كفروا أن يسيطروا على قومهم سيطرة كاملة، وحالوا بينهم وبين الاستماع إلى دعوة نوح عليه السلام، بما انتهجوه من أساليب الحرب النفسية، والدعاية الكاذبة، والسخرية، والاضطهاد.

وقد أشار نوح عليه السلام إلى عظم هذا التحدي الذي واجه قومه في شكواه لربه: **{قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزدده ماله وولده إلا خساراً، ومكروا مكراً كباراً، وقالوا لا تدرن آلهتكم ولا تدرن ودا ولا سواعا ولا يعوث ويعوق ونسرا، وقد أضلوا كثيراً}** [نوح:21-25].
هذه هي أهم التحديات التي واجهت دعوة نوح عليه السلام، فكيف كان منهج نوح عليه السلام في تجاوز هذه التحديات؟، هذا ما نتعرف عليه في العنصر الموالي.

ثالثاً- منهج نوح عليه السلام في مواجهة هذه التحديات:

قبل الحديث عن منهج نوح عليه السلام في تجاوز التحديات المختلفة التي واجهت دعوته، نبين أننا نقصد بالمنهج الخطوات العملية التي يقوم بها رجل الدعوة لتبليغ دعوته إلى الناس وتجاوز ما يقف في طريقها من عقبات، وتشمل هذه الخطوات الأساليب والوسائل التي يستخدمها الداعي للوصول إلى ذلك.

والمنهج بهذا المعنى يختلف من داع إلى آخر بحسب اختلاف الزمان والمكان والتحديات التي تواجه الدعوة.

ويتسم المنهج بالنسبة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالعصمة وبالكمال، لأن الخطوات الكبرى فيه إنما يحددها الوحي، وتترك التفاصيل لاجتهاد النبي، فإذا كان اجتهاده خلاف الأولى والأفضل في تقدير الله تبارك وتعالى وجه النبي إلى الأفضل والأكمل.

أما مناهج غير الأنبياء من الدعوة فهي جهد بشري ميزته الاهتداء بالوحي وبتجارب الأنبياء المعصومة، ويكون فيه من الصواب بمقدار حسن الاهتداء بالوحي وحسن الفهم للواقع.

وإذا تدبرنا النصوص القرآنية المتعلقة بدعوة نوح عليه السلام، يمكن أن نستخلص منها الخطوات الآتية التي قام بها نوح عليه السلام لتبليغ رسالة ربه وتجاوز التحديات التي اعترضت طريق دعوته.

أ- منهجه عليه السلام في تجاوز التحديات الخاصة بالدعوة وقيادتها:

نركز حديثنا عن المنهج الذي سلكه نوح عليه السلام لتجاوز التحديات التي مسته ومست مضمون دعوته في النقاط التالية:

*منهجه في الرد على التهم :

كان نوح عليه السلام يدرك خطورة التشويه الذي أحقه الملائكة الذين كفروا من قومه بصورته عند الرأي العام من أفراد قومه، فاهتم عليه السلام بدفع هذا التشويه، وإعطاء صورة صحيحة عن شخصيته . ويتلخص منهج نوح عليه السلام في الرد على هذه التهم فيما يلي:

- أن نوحا عليه السلام كان يتوجه بخطابه مباشرة إلى عامة قومه، ولا يتوجه بردوده إلى الملائكة، كما تشير إلى ذلك النصوص القرآنية التي سجلت ردوده عليه السلام والتي تبدأ بقوله: {يا قوم} مثل قوله لهم: {يا قوم ليس بي ضلالة} [الأعراف: 61]، وقوله: {يا قوم رأيتم إن كنت على بينة من ربي} [هود: 28].

وهو ما يبين لنا أن هدفه من ردوده لم يكن إقناع الملائكة، وإنما تصحيح الأغاليط التي كانوا يبثونها في أذهان الناس.

- كان نوح عليه السلام يكتفي في ردوده بنفي ما رمي به من اتهامات، ولا يتجاوز ذلك إلى اتهام خصومه ووصفهم بما يراه فيهم من عيوب .

فقد دفع عليه السلام عن نفسه ما اتهمه به الملائم من قومه من ضلالة بمجرد النفي، مع بيان أنه رسول من رب العالمين، يبلغ رسالات ربه، وينصح لقومه، ولم يستخدم عليه السلام أسلوب رد الشتيمة بمثلها، فلم يقل للذين اتهموه بالضلال: بل أنتم الضالون، أو نحوها من العبارات¹، ودل على هذا الأمر قوله تعالى: { قال الملائم من قومه إنا لنراك في ضلال مبين، قال يا قوم ليس بي ضلالة، ولكني رسول من رب العالمين أبلغكم، رسالات ربي، وأنصح لكم، وأعلم من الله ما لا تعلمون } [الأعراف: 61-62].

- كما نلاحظ أنه عليه السلام كان يكتفي بالرد على الأمور التي من شأنها أن تصادف قبولاً وتأثيراً في قومه، أما الشتائم والأمور غير المعقولة فلم يكن يهتم بالرد عليها، فقد أعرض عليه السلام عن الرد عن اتهام الملائم له بالجنون، لأن قومه كانوا يدركون بعده عن هذا الوصف، وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى: { إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين، قال رب انصرتي بما كذبون } [المؤمنون: 25-26].

أما التهم التي اهتم عليه السلام بالرد عليها فهي التهم التي لها صلة مباشرة برسالته، فقد دفع عليه السلام عن نفسه تهمة الضلال المبين، ببيان أنه رسول من الله رب العالمين، وأن ما يقوله لهم من كلام ليس كلامه، بل هو مبلغ عن الله عز وجل، فهو الذي علمه ما لا يعلمون، أشار إلى هذا الرد قوله تعالى: { يا قوم ليس بي ضلالة، ولكني رسول من رب العالمين، أبلغكم رسالات ربي، وأنصح لكم، وأعلم من الله ما لا تعلمون } [الأعراف: 61-62].

كما دفع عليه السلام عن نفسه تهمة أنه كاذب لا يريد من وراء دعوته إلا الوصول إلى شيء من الفضل والسلطان، فكانت الحجة التي قدمها لقومه رداً على هذه التهمة أنه لو كان يطمع في شيء لما تردد في طلب مقابل عما يقدمه من توجيهات ونصائح لقومه، ولكنه لا يريد شيئاً من ذلك، وكل طمعه في الأجر الذي يلقاه عند ربه سبحانه، أشار إلى هذا الرد قوله تعالى: { ويا قوم لا أسألكم عليه مالا، إن أجري إلا على الله } [هود: 29]، و قوله تعالى: { وما سألتكم عليه من أجر، إن أجري إلا على رب العالمين } [الشعراء: 109].

* منهجه في مواجهة أذى قومه له:

يمكن إجمال منهج نوح عليه السلام في مواجهته لأذى قومه في أمور ثلاث:

¹ - عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، فقه الدعوة...، ص.

- الأول: إعلانه توكله على الله عز وجل، وثقته الكاملة بحفظه له سبحانه، وعدم مبالاته بما هدد به الملائكة الذين كفروا من قومه من قتل وطرده .

وقد جاءت الإشارة إلى هذه الخطوة في قوله تعالى: {واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله، فعلى الله توكلت، فأجمعوا أمركم وشركاءكم، ثم لا يكن أمركم عليكم غمة، ثم اقضوا إلي ولا تنظرون} [يونس:71]، وفي قوله تعالى حديثا عن رد الأنبياء ومنهم نوح عليهم السلام على تهديد وأذى قومهم لهم: {وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا، ولنصبرن على ما آذيتمونا، وعلى الله فليتوكل المتوكلون} [إبراهيم:12].

- الثاني: محاولة تجاوز بعض أنواع الأذى والمنع من الدعوة بتغيير أساليب الدعوة ومواقفتها، فقد كان نوح عليه السلام يدعو إلى ربه جهرا أمام الملائكة من قومه، فإذا منع تحول إلى أسلوب الإسرار بالدعوة والالتقاء ببعض أفراد قومه بعيدا عن أنظار الملائكة وأعوانهم، كما كان عليه السلام يدعو قومه في وضوح النهار، فإذا منع قام يدعو بالليل .

أشار إلى هذا الأسلوب قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام: {قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا} [نوح:5]، وقوله: {ثم إني دعوتهم جهارا، ثم إني أعلنت لهم، وأسررت لهم إسرارا} [نوح:9]1.

- الثالث: التوجه إلى الله تعالى بالشكوى والدعاء طلبا للفتح والنصر، فقد كان عليه السلام إذا زادت وتيرة اضطهاد قومه له، وسدت الأبواب في وجه دعوته رغم الجهود الكبيرة التي يبذلها، يتوجه متضرعا إلى ربه سبحانه أن يفتح بينه وبين قومه وأن يؤيده بنصره.

وقد أشار إلى هذه الخطوة قوله تعالى: {فتربصوا به حتى حين، قال رب انصرني بما كذبون} [المؤمنون:25-26]، وقوله تعالى: {قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين، قال رب إن قومي كذبون فافتح بيني وبينهم فتحا ونجني ومن معي من المؤمنين} (الشعراء:116-118).

1- لم أجد فيما قرأت من كتب التفسير وكتب الدعوة تحديدا دقيقا للفرق بين قول نوح عليه السلام {دعوتهم جهارا} وقوله {ثم إني أعلنت لهم}، إلا ما أشار إليه الميداني من أن الجهر يقصد به الخطابة الجماهيرية، والإعلان ما هو أقل مثل المحاضرة والدرس، وهو في نظري تحديد غير دقيق للفرق بينهما.

بحثت في القرآن الكريم فوجدت أن مدلول كلمتي جهر وأعلن هو نفس المدلول وهو ما يقابل أسر، إلا في هذا الموطن من سورة نوح الذي يفهم منه أن الجهر والإعلان في مجال الدعوة أسلوبان مختلفان.

*منهجه في مواجهة الاعتراضات على دعوته:

كان نوح عليه السلام حريصا على دفع الشبهات التي أثارها الملام حول دعوته، باستخدام الحجج العقلية المقنعة، ونقض الأسس التي استند عليها الملام في إلقاء شبههم حول دعوته عليه السلام. وهو ما نلاحظه في رده على قولهم باستحالة كونه رسولا لأنه بشر، فقد بين لهم عليه السلام أنه بشر مثلهم في بشريته، ولكن الله يمين على يشاء من عباده برسالاته، كما أشار إليه قوله تعالى: { قالت رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم، ولكن الله يمين على من يشاء من عباده } [إبراهيم:14]، ثم نبههم عليه السلام إلى أن مهمة الإنذار والتزكية تقتضي أن يكون النبي رجلا من أفراد قومه، فذلك ما يقره العقل وليس فيه ما يدعو إلى العجب، أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى على لسانه عليه السلام: { أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون } [الأعراف:62].

ثم نبههم عليه السلام إلى أن الأدلة المثبتة لنبوته موجودة، وهي متمثلة في المعجزة والكتاب الذي يتضمن وحي الله إلى عباده، وإنما حجت عنهم هذه الأدلة بسبب كبرهم وجحودهم، وهو ما أشار إليه قوله تعالى على لسانه عليه السلام: { قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي، وآتاني رحمة من عنده، فعميت عليكم، أنلزمكموها وأنتم لها كارهون } [هود:28].

كما نلاحظ هذا المنهج في الرد، في رد نوح عليه السلام على زعم الملام أن الدعوة الحق تحسن من أوضاع أتباعها المادية، فقد بين عليه السلام لقومه أنهم جاهلون في المقاييس التي يستندون إليها للحكم على الأشخاص والدعوات، لأن مقاييسهم مادية لا تتجاوز حدود ما يرونه، ولا تأخذ بالاعتبار الأبعاد الأخرى في حياة الإنسان، من بعد روحي وبعد فكري وبعد سلوكي، فقد تضيف الدعوة إضافات معتبرة في حياة الناس الروحية والفكرية والأخلاقية هي أعظم بكثير من الجانب المادي، ويؤكد لهم أن التغيير في الجانب المادي من حياة الأتباع سيحدث حين يتحقق سببه الذي هو تغيير ما بالأنفس وتحقق التقوى، وقد أشار إلى هذه الردود قوله تعالى: { ولا أقول لكم عندي خزائن الله، ولا أعلم الغيب، ولا أقول لكم إني ملك، ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يوتيهم الله خيرا، الله أعلم بما في أنفسهم } [هود:31].

وهو نفس المنهج الذي التزم به نوح عليه السلام في الرد على الاعتراضات الأخرى التي اعترض بها الملائة على دعوته، حيث يبين فساد موازينهم، ثم يقدم الحجج العقلية التي تبين بطلان ما زعموه.

ب- منهجه عليه السلام في مواجهة التحديات الخاصة بقاعدة الدعوة:

كان نوح عليه السلام يشعر بعظم التحديات التي كانت تتعرض لها قاعدة دعوته، ويخشى مع طول أمدتها أن تكون سببا في ردة أفرادها عن دين الله عز وجل، يدل على ذلك قوله متضرعا إلى ربه: {إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يَضِلُّوا عِبَادَكَ} [نوح:29]، فكان عليه السلام يجتهد ليتجاوز أتباعه هذه التحديات.

و من النصوص القرآنية يمكن أن نستشف الخطوات التالية التي قام بها عليه السلام لتجاوز هذه التحديات:

* التربية الإيمانية لهذه القاعدة: حيث كان عليه السلام يتولى هذه القاعدة المؤمنة بالتربية الإيمانية التي تقوي صلتها بربها سبحانه، وترتقى بها إلى مقامات الإحسان، لتتمكن من الالتزام بأحكام الشريعة التي جاء عليه السلام بها، ولتكون أهلا للدفاع الله عنها، وكذا الثبات أمام الأذى الكبير الذي تعرضت له.

ورغم أن النصوص القرآنية المتعلقة بدعوته عليه السلام لم تشر بوضوح إلى قيامه عليه السلام بهذا العمل، ولكن يمكن استخلاص ذلك من كونه عليه السلام نبيا من وظائفه الأساسية بالإضافة إلى البلاغ تربية الأتباع وتركيتهم، وكذلك من كون هذه القاعدة ثبتت في إيمانها رغم عظم التحديات التي تعرضت لها.

* الدفاع عن هذه القاعدة وحمايتها: لم يكن لنوح عليه السلام من القوة ما يدفع به الأذى والاضطهاد الذي كان أتباعه يتعرضون له، لكنه كان حريصا على بقاء الصلة بينه وبينهم لتوجيههم إلى المسالك السليمة التي تحفظ لهم إيمانهم، وتحول دون ترددهم إلى رجس الشرك من جديد.

ونلمس هذا الحرص في بقاء هذه الصلة في رفضه عليه السلام طلب الملائة من قومه أن يبعد عنه هؤلاء الأتباع، وإبداء استعدادهم بالإيمان بدعوته وتأييدها إن هو فعل ذلك، فقد أصر عليه السلام على رفض أية مساومة في حق أتباعه كما أوضح ذلك رده على طلبهم: {وما أنا بطارد الذين آمنوا، إنهم ملاقوا ربهم، ولكنني أراكم قوما تجهلون، ويا قوم من ينصروني من الله إن طردتهم، أفلا تذكرون} [هود:29-30].

* بث الأمل في نفوسهم: كان عليه السلام يدرك أن من أهم العوامل التي تعين على الثبات عند التعرض للاضطهاد ما يكون في النفوس من يقين بأن الحال لن يدوم على ما هو عليه، وأن النصر لا بد آت.

فكان عليه السلام يبث الأمل في نفوس المؤمنين، ويشرهم بيوم يدحر فيه الشرك وجنده، وينصر فيه المؤمنون، نستشف ذلك من قول نوح عليه السلام ردا على سخرية الملائكة منه ومن قاعدة دعوته: {قال إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه، ومن يحل عليه عذاب مقيم} [هود:38-39].

* إنقاذهم من العذاب: حين تيقن عليه السلام أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن ، وأن أذى الملائكة للمؤمنين به لن يتوقف حتى يرتدوا عن إيمانهم، وأعلمه ربه أنه سيهلك الظالمين، وأمره أن يصنع السفينة لإنقاذ أتباعه، شرع في بناء السفينة للنجاة بمن معه، وقد أشار إلى هذه الخطوة قوله تعالى: {وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من آمن، فلا تبتئس بما كانوا يفعلون، واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ، ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغروقون} [هود:37]، وكان عليه السلام حريصا على أن يحمل معه في السفينة بعد صنعها كل من آمن، ومما يدل على ذلك حرصه على أن يركب ابنه الذي ظن أنه من أهله المؤمنين معه في السفينة حتى آخر لحظة كما أوضح ذلك قوله تعالى على لسانه عليه السلام وهو ينادي ابنه: {ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين، قال سأوي إلى جبل يعصمني من الماء، قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين} [هود:42-43].

كما نلاحظه هذا الحرص حتى بعد هلاك ابنه حيث نادى عليه السلام ربه بقوله: {رب إن ابني من أهلي ، وإن وعدك الحق، وأنت أحكم الحاكمين} [هود:45].

ج- منهجه في مواجهة التحديات الخاصة بقاعدة المجتمع:

عرفنا أن التحديات التي واجهت قومه تمثلت في رسوخ الشرك فيهم، ومعاناة نفوسهم من الكبر، وهيمنة الملائكة عليهم، فما هي الخطوات التي قام بها عليه السلام لتمكين قومه من تجاوز هذه التحديات، وإبلاغ رسالة ربه؟.

يمكن أن نجمل هذه الخطوات في النقاط التالية:

* تكثيف الاتصال بهذه القاعدة: حيث كان عليه السلام يستغل اليوم كله نهاره وليله لدعوة قومه، يتخير من الأوقات ما يناسب كل شخص أو جماعة يرى أن استجابتهم تكون فيها أقرب، فالبعض قد يناسبه الصباح، والبعض يناسبه المساء حين يفرغ من أشغاله، والبعض الآخر لا يناسبه إلا وقت الليل حين يخلد الناس إلى الراحة ويسود الهدوء .

وقد أشار إلى هذه الخطوة قول الله تعالى على لسانه عليه السلام: {قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا} [نوح:6].

* تنوع أساليب الدعوة: فقد استخدم عليه السلام أساليب مختلفة في دعوته لهذه القاعدة، فتارة يختار أسلوب الإسرار بالدعوة فيتصل بهم اتصالا شخصيا، وتارة يختار أسلوب الجهر والإعلان حين يرى أنه الأنسب للبلاغ كما أشار إليه قوله تعالى: {ثم إني دعوتهم جهارا، ثم إني أعلنت لهم، وأسررت لهم إسرارا} (نوح:8-9).

وتارة تكون دعوته لهم بالحكمة والموعظة الحسنة، مخاطبة للعقل بالحجة والدليل، وللوجدان بالترغيب والترهيب كما في قوله تعالى: {فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا، يرسل السماء عليكم مدرارا، ويمددكم بأموال وبنين، ويجعل لكم جنات وأنهارا، ما لكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا، ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا، وجعل القمر فيهن نورا، وجعل الشمس سراجا، والله أنبتكم من الأرض نباتا، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا، والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا} [نوح:10-20]، وتارة تكون دعوته بالجدال والتي هي أحسن، حيث كان عليه السلام يجادل الملائم أمام قاعدة المجتمع ليتبين لها بالدليل والبرهان أن الحجج التي يقدمها الملائم لصرفهم عن الاستماع لدعوته عليه السلام حجج واهية، والمتتبع للنصوص القرآنية التي سجلت لنا مجادلة نوح عليه السلام للملائم يحس بقوة حججه عليه السلام وتهاافت ادعاءاتهم أمامها ، وهو ما كان يشعروهم بالضعف ويدفعهم إلى الهروب من الجدل، والتحدي بطلب المعجزات، كما يشير إليه قوله تعالى على لسان الملائم: {قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا، فاتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين} [هود:32].

* الاستمرار في الدعوة بحيوية وطول نفس: فقد لبث عليه السلام في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ، قائما بواجب الدعوة إلى الله أحسن قيام، باذلا لأقصى ما يملك من جهد وطاقه، دون شعور بالكلل أو الملل، مع اقتناعه الكامل بأن عمله مجرد سبب، أما الهادي فهو الله عز وجل،

كما صرح بذلك لقومه حين قال لهم: {ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم، هو ربكم وإليه ترجعون} [هود:34].

ولم يتوقف عليه السلام عن الدعوة إلا حين أخبره ربه سبحانه الذي يعلم الغيب أن لا خير يرجى من الاستمرار فيها، وأمره أن يبدأ في صنع السفينة للنجاة بمن معه من الطوفان الذي سيهلك به القوم الكافرين، وهو أوضحه قوله تعالى: {وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن، فلا تبئس بما كانوا يفعلون، واصنع الفلك بأعيننا ووحينا، ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون} [هود:37].

موسى عليه السلام ودعوته

1- موسى عليه السلام من الميلاد إلى البعثة

نسبه:

موسى عليه السلام من ذرية بني إسرائيل الوافدين مع يعقوب عليه السلام إلى مصر، فأبوه عمران حفيد ليعقوب عليه السلام.

ظروف مولده:

ولد عليه السلام في ظروف عصيبة، كان بنو إسرائيل يتعرضون فيها لإبادة من قبل أحد ملوك مصر وفراعنتها، بسب خوفه من تكاثرهم، وخشيته من تحولهم إلى قوة في مصر يصعب عليه التحكم فيها، فأمر بذبح المواليد الذكور منهم وترك الإناث.

ويبين القرآن الكريم كيف شملت رعاية الله عز وجل وحفظه موسى عليه السلام منذ لحظة ميلاده، إلى أن وضعت أمه في التابوت، ووصله إلى قصر فرعون، ليكون المكان الذي يترعرع فيه.

قال الله تعالى: {وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه، فإذا خفت عليه فألقيه في اليم، ولا تخافي ولا تحزني، إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين، فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا، إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين، وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون، وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كانت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين، وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون، وحرمنا عليه المراضع من قبل، فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون، فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن، ولتعلم أن وعد الله حق، ولكن أكثر الناس لا يعلمون} [القصص: 6-12].

نشأته وتربيته:

تربى موسى عليه السلام بين بيت أمه وبيت فرعون، وكبر ونشأ في ظل المجتمع المصري، كما يشير إلى ذلك قول الله تعالى على لسان فرعون خطابا لموسى عليه السلام: {ألم نريك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين} [الشعراء: 17].

ولا شك أن أمه وأهله كانوا يبصرونه بأصله الشريف، ويربونه على قيم الإيمان ومبادئه، ويعرفونه بما يعاينه بنو إسرائيل على أيدي الفراعنة من استضعاف واستعباد، ثم إنه عليه السلام لما كبر لاحظ ذلك بنفسه، ولم يجعله عيشه في بيت فرعون بليد الحس تجاه ما يصيب قومه، بل لم يزد إحصان فرعون إليه إلا شعورا بمعاناتهم، كما يبين ذلك قوله تعالى على لسانه عليه السلام ردا على فرعون حين قال له: {ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين} [الشعراء:17]، حيث رد عليه بقوله: {وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل} [الشعراء:21].

وكغيره من إخوانه من الأنبياء تولاه الله عز وجل بالتأديب والتربية حتى بلغ أشده واستوى، وآتاه الله العلم والحكم {ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين} [القصص:13]، ومفهوم الأشد أن يبلغ من العمر ما يقارب الثماني عشرة سنة.

نصرته عليه السلام للمظلومين من بني قومه:

كان عليه السلام يجتهد في نصرته بني قومه كلما أمكنه ذلك، بما يملكه من قوة ونفوذ متصل بقصر الملك، ويورد لنا القرآن الكريم نموذجاً عن هذه النصرته في قوله تعالى: {ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها، فوجد فيها رجلين يقتتلان، هذا من شيعته وهذا من عدوه، فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه، فوكزه موسى فقضى عليه، قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين، قال رب إنني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له، إنه هو الغفور الرحيم، قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين، فأصبح في المدينة خائفاً يترقب، فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه، قال له موسى إنك لغوي مبين، فلما أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما، قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس، إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين، وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى، قال يا موسى إن الملائمة يأترون بك ليقتلوك، فاخرج إنني لك من الناصحين، فخرج منها خائفاً يترقب، قال رب نجني من القوم الظالمين} [القصص:14-20].

هجرته إلى مدين:

وخرج موسى عليه السلام من مصر هروبا من الملأ، واتجه صوب مدين التي كانت تبعد عن مصر مسيرة ثمانية أيام¹، واختارها على غيرها من المدن المحيطة لسبعين اثنين أولهما أنها لم تكن تحت سلطان فرعون، وثانيهما لما عرف من وجود الأنبياء والصالحين بها، فقد سميت بمدين بن إبراهيم عليه السلام وهي قرية شعيب عليه السلام، ولا شك أن آثار النبوة باقية فيها وفي أهلها.

سجل القرآن الكريم هذه الهجرة من موسى عليه السلام إلى مدين في قوله تعالى: {ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل، ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون، ووجد من دونهم امرأتين تذودان، قال ما خطبكما، قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير، فسقى لهما ثم تولى إلى الظل، قال رب إنني لما أنزلت إلي من خير فقير، فجاءته إحداهما تمشي على استحياء، قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا، فلما جاءه وقص عليه القصص، قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين} [القصص: 21-25].

زواجه عليه السلام:

فلما جاء موسى عليه السلام إلى بيت الشيخ² عرض عليه أن يزوجه إحدى ابنتيه على أن يرعى له غنمه، فقبل موسى عليه السلام ذلك، وقد أشار إلى ذلك قول الله تعالى: {قالت إحداهما يا أبت استأجره، إن خير من استأجرت القوي الأمين، قال إنني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تاجرني ثماني حجج³، فإن أتممت عشرا فمن عندك، وما أريد أن أشق عليك، ستجدني إن شاء الله من الصالحين، قال ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي، والله على ما نقول وكيل} [القصص: 26-28].

ولم تبين النصوص القرآنية أي الأجلين قضى موسى عليه السلام في خدمة هذا الرجل الصالح، بل أشارت إلى أنه لبث في مدين سنين عديدة، كما أكد ذلك قوله تعالى: {فلبثت سنين في أهل مدين، ثم جئت على قدر يا موسى، واصطنعتك لنفسي} [طه: 40-41].

عودته عليه السلام إلى مصر وبعثته:

1- تفسير أبي السعود، 117/5.

2- قال البعض إنه شعيب عليه السلام، قال الطبري: "هذا مما لا يدرك علمه إلا بخبر، ولا خبر بذلك تجب حجته، فلا قول في ذلك أولى بالصواب مما قاله الله جل ثناؤه". 40/20.

3- فيه إشارة إلى تقدير الزمن بالعبادة، وعلى حرص هذا الرجل الصالح على هذه الشعيرة العظيمة، شعيرة الحج.

بعد هذه السنين في أهل مدين قرر عليه السلام أن يعود إلى بلده مصر، فخرج بأهله متجها إليها، و في طريقه بالوادي المقدس بدأ الوحي في حياته عليه السلام، وكلف بالنبوة، يذكر لنا القرآن ذلك في قوله تعالى: ﴿وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إني آنست نارا، لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى، فلما أتاها نودي يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري، إن الساعة آتية أكاد أخفيها، لتجزى كل نفس بما تسعى، فلا يصدنك من لا يومن بها واتبع هواه فتردى، وما بتلك بيمينك يا موسى، قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى، قال ألقها يا موسى، فألقاها فإذا هي حية تسعى، قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى، واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى، لنريك من آياتنا الكبرى، اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ [طه: 8-23]. وهكذا انتهت فترة التربية والإعداد، لتبدأ مرحلة جديدة في حياة موسى عليه السلام، وهي مرحلة الدعوة والإنذار.

2- معالم شخصية موسى عليه السلام:

إذا تتبعنا النصوص القرآنية التي نقلت لنا قصة موسى عليه السلام وحدثنا عن شخصيته، يمكن أن نستخلص منها الخصائص التالية التي تميزت به شخصيته عليه السلام، وجعلته أهلا للتكليف بالمهمة الكبرى التي ابتعث للقيام بها.

أولا- الإخلاص الكبير لله تعالى:

وهي خاصية أشار إليها بشكل صريح قوله تعالى: ﴿واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا﴾ [مريم: 51].

ولها مظاهر دالة عليها في حياته من أبرزها دوام صلته بالله عز وجل في كل الأحوال التي تمر به، التجاء وتضرعا، واستغفارا وتوبة، واستعانة واستعاذة، كما تدل عليه الآيات العديدة التي أشارت إلى هذه الصفة من صفاته عليه السلام، منها قوله عليه السلام بعد أن وكز الفرعوني فقتله دون قصد لذلك ﴿قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين، قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له، إنه هو الغفور الرحيم﴾ [القصص: 14-16]، وقوله عليه السلام مظهرها حاجته وفقره إلى الله تعالى وهو بمدين ﴿رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير﴾ [القصص: 24]، وقوله عليه السلام بعد

أن عاتب أخاه هارون عليه السلام على ضلال بني إسرائيل {قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين} [الأعراف:151].

ومن مظاهرها كذلك عظيم توكله على الله تعالى وحده في المواقف الشديدة التي تفقد فيها كثير من النفوس اتزانها، ويظهر فيها ضعف إيمانها، كما يدل عليه مثلا قوله لقومه من بني إسرائيل حين أدركهم جنود فرعون {كلا إن معي ربي سيهدين} [الشعراء:62].

ومن مظاهرها كذلك شدة حبه لربه سبحانه الذي جعله أهلا لأن يكلمه الله تكليماً {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} [النساء:164]، وجعله يستعجل لقاء ربه ويذهب إلى الطور قبل الموعد كما يدل عليه جوابه لربه سبحانه {وما أعجلك عن قومك يا موسى، قال هم أولاء على أثري وعجلت إليك رب لترضى} [طه:82]، كما دفعه إلى أن يسأل ربه ما هو أعظم من الكلام وهو الرؤية {قال رب أرني أنظر إليك} [الأعراف:143].

ثانيا- عدم الصبر على رؤية الظلم:

وهي صفة راسخة فيه عليه السلام، ظهرت بجلاء في مواقف عديدة من حياته، منها على سبيل المثال تدخله لنصرة الإسرائيلي علي الفرعوني لما لاحظته من ظلم الفراعنة لبني قومه، ومنها مسارعته إلى إعانة الفتاتين حيث أثاره المشهد الذي رآه والمتمثل في رجال يتدافعون على سقي أغنامهم دون أن يلتفتوا إلى امرأتين ضعيفتين ويتولوا سقي أغنامهما، ومنها كذلك اعتراضه على تصرفات الخضر عليه السلام رغم أنه أخذ عليه عهدا أن لا يسأله عن شيء حتى يكون هو الذي يخبره عنه، ونلاحظ ذلك في قوله عليه السلام للخضر منكرا: {أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا} [الكهف:70]، {أقتلت نفسا زاكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا} [الكهف:73].

ثالثا- الصرامة والحزم:

تتميز شخصيته عليه السلام بقوة كبيرة أثمرت فيها صرامة وحزما مكناه عليه السلام من السيطرة على بني إسرائيل وقيادتهم للتحرر من استعباد فرعون وجنوده، والسير بهم في طريق الالتزام بأحكام الشريعة التي بعث عليه السلام بها رغم كثرة تمردهم وعصيانهم.

ومما يدل على عظم هذه الخاصية في شخصيته ودورها العظيم في إنجاز رسالته ما حدث عند غيابه عليه السلام عن قومه واستخلافه لأخيه هارون عليه السلام عليهم، حيث استغل السامري هذه

الفرصة لإعادة بني إسرائيل إلى الشرك لعلمه أنه ليس لهارون عليه السلام من الهيمنة عليهم ما لموسى عليه السلام، ونجح في ذلك رغم محاولات هارون عليه السلام منعهم ، فلم ينتهوا حتى رجع إليهم موسى عليه السلام.

سجل لنا القرآن الكريم الموقف في قوله تعالى: ﴿ولما رجع موسى إلى قومه غضباناً أسفاً قال بيسما خلفتموني من بعدي، أعجلتم أمر ربكم، ألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه، قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني، فلا تشمت بي الأعداء، ولا تجعلني مع القوم الظالمين﴾ [الأعراف:150].

ومما يدل على حزمه كذلك حديث رواه الأئمة عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "تجاج آدم وموسى، فحج آدم موسى، قال له موسى: أنت آدم الذي أغويت الناس وأخرجتهم من الجنة، فقال له آدم: أنت موسى الذي أعطاه الله علم كل شيء، واصطفاه على الناس برسالته، قال: نعم، قال: أفتلومني على أمر قد قدر عليّ قبل أن أخلق" ¹.

رابعاً- تواضعه عليه السلام وبصره بحقيقة قدراته:

فقد كان عليه السلام عارفاً بقدر نفسه، عالماً بجوانب القصور في شخصيته، مجتهداً في تحصيل كلّ علم يزيد من قدرته على هداية الناس وإصلاح أوضاعهم، وتوفير كلّ سبب يمكنه من تبليغ رسالة ربه البلاغ المبين.

ومما يدل على ذلك مسارعته عليه السلام في البحث عن الرجل الذي آتاه الله من لدنه علماً، ليتلمذ عليه ويحصل ما عنده من علم، وقد عبر القرآن الكريم عن هذه المسارعة والحرص بقوله تعالى على لسانه عليه السلام: ﴿وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا﴾ [الكهف:59]، ووقف عليه السلام وهو النبي المرسل موقف التلميذ من هذا الرجل وعرض عليه أن يكون من أتباعه وقبل شروطه ليعلمه ما عنده من علم كما بين ذلك قوله تعالى: ﴿قال له موسى هل اتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً، قال إنك لن تستطيع معي صبراً، وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً، قال ستجني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً، قال فإن اتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً﴾ [الكهف:66-69].

¹ - مسلم، الجامع الصحيح، كتاب القدر، باب حجج آدم وموسى عليهما السلام، حديث رقم: 6912.

كما يدل على رسوخ هذه الصفة فيه طلبه من ربه أن يشدّ عضده بأخيه هارون لأنه أقدر منه على البيان والبلاغ، كما أوضحه قوله تعالى على لسانه: {وأخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي رداً يصدقني إني أخاف أن يكذبون} [القصص:34].

3- أهداف دعوة موسى عليه السلام:

كان لدعوة موسى عليه السلام أهداف كلية بعيدة، وهي أهداف مشتركة بين دعوات الأنبياء عليهم السلام، وأهداف مرحلية تختلف من دعوة إلى أخرى بحسب اختلاف التحديات التي تواجهها والظروف المحيطة بها.

فكان من الأهداف الكلية لدعوته عليه السلام: إقامة الحجّة على الناس، وتعييدهم لله، وتحقيق التقوى فيهم، وإقامة الدين في حياتهم.

أما الأهداف المرحلية لدعوته عليه السلام فهي:

أولاً- تخليص فرعون وملئه من طغيانهم:

ويبين هذا الهدف قوله تعالى: { اذهب إلى فرعون إنه طغى، فقل هل لك إلى أن تزكى، وأهديك إلى ربك فتحشى} (النازعات:17-19)، وقوله تعالى: { وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين، قوم فرعون، ألا يتقون} (الشعراء:9-10).

ثانياً- تحرير بني إسرائيل من الاستعباد والاستضعاف:

ويوضح هذا الهدف قوله تعالى: { ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض} (القصص:4)، وقوله تعالى: { فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين، أن أرسل معنا بني إسرائيل} (الشعراء:15-16).

ثالثاً- إصلاح حال بني إسرائيل:

ويبين هذا الهدف قوله تعالى: { ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور} (إبراهيم:5)، وقوله تعالى: { وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلاً} (الإسراء:2).

رابعاً- إقامة ملك لبني إسرائيل:

ويشير إلى هذا الهدف قوله تعالى: { ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض، ونجعلهم أئمة، ونجعلهم الوارثين} (القصص:4)، وقوله تعالى على لسان موسى عليه السلام مخاطباً بني

إسرائيل: ﴿ وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة عليكم، إذ جعل فيكم أنبياء، وجعلكم ملوكا، وآتاكم ما لم يوت أحدا من العالمين، يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم..﴾ (المائدة: 22-23).

4. التحديات التي واجهتها دعوة موسى عليه السلام:

أ. تحديات المحيط السياسي: ونذكر منها التحديات التالية:

* السلطة الاستبدادية: وهو التحدي الذي يشير إليه قوله تعالى: ﴿ إن فرعون علا في الأرض، وجعل أهلها شيعا، يستضعف طائفة منهم، يذبح أبناءهم، ويستحيي نساءهم، إنه كان من المفسدين﴾ (القصص: 3)، وقوله تعالى على لسان موسى وهارون عليهما السلام: ﴿ قالوا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى﴾ (طه: 44).

ومما فاقم من طغيان فرعون الطبقة السياسية التي كانت تحيط به، وقد أشار القرآن الكريم إلى التحديات التي صدرت من هذه الفئة في قوله تعالى: ﴿ قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تامرون، قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين ياتوك بكل ساحر عليم﴾ (الأعراف: 108-111).

* الحرب النفسية: التي يشير إلى بعض صورها قول الله تعالى على لسان فرعون: ﴿ إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون﴾ (الشعراء: 27)، وقوله تعالى على لسان الملأ: ﴿ قالوا أجبنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا، وتكون لكما الكبرياء في الأرض﴾ (يونس: 78).

ب. تحديات المحيط الاجتماعي: ونذكر من هذه التحديات ما يلي: * المقاييس الطبقيّة الراسخة: وقد أشار إلى هذا التحدي قوله تعالى: ﴿ إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا﴾ (القصص: 4)، وقوله تعالى على لسان فرعون مظهرا احتقاره لموسى عليه السلام لأنه من بني إسرائيل: ﴿ أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين﴾ (الزخرف: 51-52).

* دونية القاعدة الجماهيرية وسهولة استغفالها: وهو التحدي الذي يشير إليه قوله تعالى: ﴿ فاستخف قومه فأطاعوه، إنهم كانوا قوما فاسقين﴾ (الزخرف: 55).

ج- تحديات المحيط الداخلي للدعوة: وهي تحديات كثيرة، نذكر منها:

* تلوث بني إسرائيل بالشرك: كما يوضحه مثلاً طلبهم من موسى عليه السلام: {يا موسى اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة} (الأعراف: 138).

* إصابتهم بمرض الجبن: كما يبين ذلك قول الله تعالى على لسانهم رداً على طلب موسى عليه السلام منهم الدخول إلى الأرض المقدسة: {قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون} (المائدة: 24)، {قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها، فاذهب أنت وربك فقاتلا، إنا هاهنا قاعدون} (المائدة: 26).

* نكثهم للعهد وخيانتهم للمواثيق: كما يوضحه قوله تعالى: {وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور، خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا، قالوا سمعنا وعصينا} (البقرة: 92).

5- منهج موسى عليه السلام في تجاوز هذه التحديات:

أ. منهجه عليه السلام في تجاوز تحديات المحيط السياسي والاجتماعي: تعامل عليه السلام مع تحديات هذا المحيط وفق الخطوات التالية:

* تقدير جسامة تحديات هذا المحيط وعدم الاستهانة بها، ونلمس ذلك في قول موسى وأخيه هارون عليهما لربهما حين أرسلهما إلى فرعون: {ربنا إنا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى} (طه: 42).

* استخدام أسلوب اللين في التعامل مع قوى هذا المحيط، والبعد عن كل أنواع الغلظة والعنف: وهو ما يدل عليه توجيه الله سبحانه لموسى وهارون عليهما السلام بالتزامه في دعوتهما لفرعون: {اذهبا إلى فرعون إنه طغى، فقولا له قولاً ليّنًا، لعله يتذكر أو يخشى} (طه: 42-43).

* الاستعانة بأخيه هارون لفصاحته وقدرته على البيان: كما ينبه إلى ذلك قول الله تعالى على لسان موسى عليه السلام: {وأخي هارون هو أفصح مني لسانًا، فأرسله معي رداً يصدقني، إني أخاف أن يكذبون} (القصص: 33).

* تأييده بالآيات والمعجزات: وقد مكّنه هذا التأييد من تجاوز الكثير من تحديات هذا المحيط، وكان أمراً ضرورياً لهز النفوس وتحريك العقول.

ومن الآيات التي أيد بها: العصا، اليد، الطوفان، الجراد، القمل، الضفادع، الدم...

أ. منهجه عليه السلام في تجاوز تحديات المحيط الداخلي للدعوة:

* تقوية صلة بني إسرائيل بالله تعالى: وذلك بتصحيح مفاهيمهم حول الألوهية، وتذكيرهم بنعم الله عليهم، والتضرع إلى الله تعالى أن يفتح عليهم من أبواب رزقه، ودعوتهم إلى إقامة الصلاة.

ومن النصوص القرآنية التي بينت قيام موسى عليه السلام بذلك، قوله تعالى على لسان موسى عليه مخاطبا قومه: {إنكم قوم تجهلون، إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون} (الأعراف: 140)، وقوله تعالى: {وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم، إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يوت أحدا من العالمين} (المائدة: 22)، وقوله تعالى: {وإذ استسقى موسى لقومه، فقلنا اضرب بعصاك الحجر، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، قد علم كل أناس مشربهم، كلوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين} (البقرة: 59)، وقوله تعالى: {وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة} (يونس: 87).

* حمايتهم من اضطهاد فرعون وملئه: وذلك بدعوتهم إلى التوكل على الله والاستعانة به، والدعاء على فرعون وملئه، والخروج بهم من مصر فرارا من بطش فرعون وجنوده.

قال الله تعالى: {قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا} (الأعراف: 126)، وقال تعالى: {وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وماله زينة في الحياة الدنيا، ربنا ليضلوا عن سبيلك، ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم} (يونس: 88-89)، وقال تعالى: {وأوحينا إلى موسى أن اسر بعبادي إنكم متبعون...} (الشعراء: 52-68).

* حملهم على الالتزام بالشرعية وعدم الاستهتار بها: وذلك من خلال تربيتهم وتركيتهم، والتشديد عليهم والتضييق عند المخالفة أو الاستهتار، واستخدام الآيات لإلزامهم على امتثال الأوامر، ومعاقبتهم جزاء لعصيانهم وتلاعيبهم.

قال الله تعالى: {قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى، بل توثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى، إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى} (الأعلى: 14-19)، وقال الله تعالى: {وإذ قال موسى لقومه إن الله يامرکم أن تذبحوا بقرة، قالوا ألتخذنا هزوا، قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين...} (البقرة: 66-70)، وقال الله تعالى: {وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا...} (البقرة: 92)، وقال الله تعالى: {وإذ قلت يا موسى لن نومن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون، ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون} (البقرة: 55-56).

منهج النبي صلى الله عليه وسلم في إيصال الدعوة

1- مفهوم منهج إيصال الدعوة: مجموع الطرق و الأساليب والوسائل التي تعتمد لإيصال الدعوة إلى الناس، إيصالاً يتحقق به الفهم الصحيح والاعتناع.

2- أهمية دراسة منهج النبي صلى الله عليه وسلم في إيصال الدعوة:

لاشك أننا لا نهدف من دراستنا لهذا الموضوع إلى مجرد تحصيل معرفة تاريخية تتعلق بجانب من جوانب سيرته صلى الله عليه وسلم، بل تحصيل معرفة تمكننا من التأسي والافتداء به صلى الله عليه وسلم فيما نقوم به من أعمال نروم بها إيصال رسالة الإسلام إلى الناس. تتمثل أهمية دراسة هذا الموضوع في:

- كون النبي صلى الله عليه أحسن من دعا إلى دين الله، حيث كان له صلى الله عليه وسلم منهج في الدعوة من أهم ميزاته البصيرة بما تتضمنه من واقعية ووضوح وشمولية {قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة} [يوسف:108].

- من أهم ميزات المنهج الذي سار عليه صلى الله عليه وسلم النتائج الباهرة التي حققها، حيث لم ينتقل صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى إلا والجزيرة العربية مستجيبة لدعوته، وأكبر الدول المجاورة للجزيرة قد بلغت الدعوة.

وهي نتائج يعود فيها الفضل بعد التأييد الإلهي له صلى الله عليه وسلم إلى المنهج المحكم الذي سار عليه صلى الله عليه وسلم في تبليغ رسالة ربه.

3- العلاقة بين منهج إيصال الدعوة ومراحل الدعوة:

لا يمكن أن نعزل دراستنا لمنهجه صلى الله عليه وسلم في إيصال الدعوة إلى الناس عن المراحل التي مرت بها دعوته صلى الله عليه وسلم، بل إننا نلاحظ في دراستنا لسيرته صلى الله عليه وسلم ترابطاً بين المراحل التي مرت بها دعوته والطرق والأساليب التي سلكها لإيصال الدعوة بما يحقق أهداف كل مرحلة، فلكل مرحلة طرقها وأساليبها ووسائلها، كما قد تشترك بعض المراحل في بعض الأساليب والوسائل لخدمتها لأهداف تلك المراحل.

فإذا كانت دائرة الدعوة مثلاً ضيقة كان لها أساليبها ووسائلها، فإذا اتسعت دائرتها تطلب تحقيق أهدافها تبني أساليب جديدة واستخدام وسائل تناسب المرحلة الجديدة.

ومن المهم جدا عند دراسة منهجه صلى الله عليه أن لا نغفل عن هذا الترابط بين المراحل والطرق والأساليب.

4- مراحل دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم:

درج بعض المؤلفين في السيرة النبوية على تقسيم المراحل التي مرت بها دعوته صلى الله عليه وسلم إلى أربعة مراحل: أولها الدعوة سرا، وثانيها الدعوة جهرا وباللسان فقط، وثالثها الدعوة جهرا مع قتال المعتدين، رابعها الدعوة جهرا مع قتال كل من يقف في طريق الدعوة¹.

والملاحظ على هذا التقسيم أن المعتبر في تمييز مرحلة عن أخرى هو تغير أساليب ووسائل الدعوة ، فإذا لوحظ هذا التغير حكم بوجود مرحلة جديدة ومستقلة لدعوته صلى الله عليه وسلم.

والأساس الذي اعتمده أصحاب هذا التقسيم وإن كان صحيحا، فإنه لا يقدم لنا صورة دقيقة عن المراحل التي مرت بها دعوته صلى الله عليه وسلم من خلال أهداف واضحة لكل مرحلة، لأن الذي يحدد المرحلة بدقة هو الأهداف لا الوسائل والأساليب التي قد تكون مشتركة بين مرحلتين أو أكثر لخدمتها لأهداف مرحلتين أو أكثر.

ويمكن أن نفهم لماذا لجأ المؤلفون في السيرة إلى هذا الأساس في التقسيم إذا علمنا أن أمر تحديد المراحل بالأهداف أمر عسير جدا بسبب عدم توفر معلومات دقيقة يمكن الاعتماد عليها، وقد أشار إلى ذلك أحد الدارسين بقوله: " ليس لدينا سجل كامل لأسباب النزول وتاريخه المضبوط، وحتى الآيات التي تعرف أسباب نزولها تختلف فيها الآراء، وتتعدد فيها الأقوال، ولا مجال فيها لغير الظن والترجيح.

ولو كان بين أيدينا ذلك السجل الدقيق لهياً لنا فرصة لا تقدر لتتبع مراحل الدعوة الإسلامية وطرائقها في كل مرحلة، ولكشف لنا العوامل النفسية والعقلية فيها، فوق العوامل التاريخية والمحلية..، ولكن هذا كله للأسف الشديد لا سبيل إليه الآن بغير الحدس والتخمين"².

وقد انتبه العلامة ابن القيم رحمه الله وهو يتناول موضوع مراحل الدعوة النبوية أو مراتبها كما سماها، فقسم هذه المراحل باعتبار الأهداف لا بالنظر إلى الوسائل، فقال رحمه الله: " إن مراتب الدعوة خمسة: المرتبة الأولى النبوة، الثانية إنذار عشيرته الأقربين، الثالثة إنذار قومه، الرابعة إنذار قوم ما آتاهم

1- انظر مثلا: محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة.

2- سيد قطب، مشاهد القيامة في القرآن، ص: 9.

من نذير من قبله وهم العرب قاطبة، الخامسة إنذار جميع من بلغته دعوته من الجن والإنس إلى آخر الدهر"1.

واجتهد بعض الدارسين في تقسيم مراحل الدعوة النبوية خلال الفترة المكية معتبرا في ذلك أهدافها، فجعلها ثلاث مراحل، المرحلة الأولى وهي التي تسمى بالمرحلة السرية في كتب السيرة، وحدد للدعوة فيها هدفين اثنين: أولهما بناء نواة القاعدة الجهادية للدعوة، وثانيهما حماية هذه النواة الجهادية للدعوة، والمرحلة الثانية من السنة الثالثة للبعثة إلى السنة العاشرة منها، وجعل لها هدفين اثنين، أولهما مواصلة بناء القاعدة الجهادية للدعوة، وثانيهما إنجاز المرحلة الأولى من انفتاح الدعوة على المجتمع، أما المرحلة الثالثة فتمتد من السنة العاشرة من البعثة إلى السنة الثالثة عشر منها، وذكر لها أهدافا ثلاثة: أولها مواصلة بناء القاعدة الجهادية للدعوة، وثانيها إنجاز المرحلة الثانية من انفتاح الدعوة على المجتمع، وثالثها البحث عن موقع جديد للانطلاق في بناء الدولة2.

ويحتاج تحديد المراحل التي مرت بها دعوته صلى الله عليه وسلم تحديدا دقيقا إلى بحث أدق وأعمق، يركز أولا على نصوص القرآن الكريم التي تضمنت المحددات والموجهات لكل مرحلة مرت بها دعوته صلى الله عليه وسلم، ثم إلى متابعة دقيقة وعميقة لجهوده صلى الله عليه وسلم الدعوية من خلال سيرته في الفترتين المكية و المدنية.

وإلى أن يتوفر لدينا مثل هذا البحث، فإننا نعتمد في دراستنا لمنهجه صلى الله عليه وسلم في إيصال الدعوة إلى الناس على اجتهاد العلامة ابن القيم رحمه الله في تقسيمه لمراحل الدعوة النبوية، لمناسبة هذا التقسيم لموضوع بحثنا.

5- منهجه صلى الله عليه وسلم في إيصال الدعوة في المرحلة الأولى:

المرحلة الأولى هي التي سماها العلامة ابن القيم رحمه الله مرحلة النبوة، وسبب تسميته لها بذلك أنها المرحلة التي بدأت فيها النبوة في حياته صلى الله عليه وسلم، حيث جاءه جبريل وهو يتعبد في غار حراء ونزل عليه قوله تعالى: {اقرأ باسم ربك، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم} [العلق: 1-5] كما نزل عليه قوله تعالى: {يا أيها المدثر قم فأندر} [المدثر: 1].

1- زاد المعاد في هدي خير العباد، 34/1.

2- المنهج النبوي في حماية الدعوة والحفاظ على منجزاتها خلال الفترة المكية، ص: 321.

كان الإطار المكاني لهذه المرحلة هو مكة المكرمة، أما إطارها الزمني فقد امتد على مدى ثلاث سنوات (من السنة الأولى للبعثة إلى السنة الثالثة منها).

وكان لدعوته صلى الله عليه وسلم في هذه المرحلة هدفان، أولهما إيصال الدعوة إلى بعض المقربين، وثانيهما تربية من استجاب للدعوة على قيمها ومبادئها.

وكانت هذه المرحلة تتطلب السرية في الدعوة كأسلوب، فنهجه صلى الله عليه وسلم ، واستخدم لتحقيقه وسيلة الاتصال الشخصي، أو الاتصال الفردي الانتقائي كما سماه بعض الدارسين¹.

واقصر صلى الله عليه وسلم على الاتصال الشخصي لاعتبارين اثنين، أولهما يتعلق بواقع مكة وما جاورها ، حيث كان العرب أمة أمية لا يحسنون القراءة، فالاتصال بهم عن طريق المكتوب وإن كان يحقق شرط السرية إلا أنه قليل الجدوى بسبب أن عدد القارئ قليل جدا فيهم، فقد ذكر بعض المؤرخين أنه في وقت البعثة لم يكن في قريش إلا ستة عشر رجلا يعرف الكتابة².

أما الاعتبار الثاني فهو توفر مجموعة من الميزات في الاتصال الشخصي لا نجدها في غيره من أنواع الاتصال الجمعي والجماهيري، نذكر منها:

- إمكانية اختيار من توجه إليه الدعوة، بناء على معطيات محددة.
 - يكون التأثير فيه أكبر مقارنة بغيره من أنواع الاتصال، لاعتماده على أكثر من طريقة في إيصال الرسالة (اتصال لفظي واتصال غير لفظي).
 - فيه تتم مخاطبة الفرد بعيدا عن تأثير الآخرين عليه، بينما في الاتصال الجمعي يخاطب الفرد ضمن مجموعة { أن تقوموا لله مثنى وفردى ثم تفكروا }.
 - يمكن فيه إزالة بعض العوائق التي تحول دون وصول الرسالة إلى المدعو، من خلال ملاحظة ردود الأفعال اللفظية وغير اللفظية.
 - يمكن إدراك نتيجته أثناء عملية الاتصال أو بعد الفراغ منها مباشرة.
- من النماذج التي تدل على استخدام رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذه الوسيلة، ما تذكره كتب السيرة من اتصاله في هذه المرحلة ببعض المقربين منه و من يطمئن إليهم مثل خديجة زوجها، وزيد مولاه، وعلي بن أبي طالب ابن عمه، وصديقه أبي بكر.

1- الطيب برغوث، المنهج النبوي...، ص:

2- البلاذري، فتوح البلدان،

يورد لنا ابن كثير رحمه الله صورة عن عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه المرحلة، وهو يروي لنا كيفية إسلام علي كرم الله وجهه الذي كان يعيش معه صلى الله عليه وسلم في بيته¹، فأراه يصلي هو وخديجة فقال: يا محمد ما هذا؟، قال صلى الله عليه وسلم: دين الله الذي اصطفى لنفسه، وبعث به رسله، فأدعوك إلى الله وحده لا شريك له، فقال: هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم، فلست بقاض أمرا حتى أحدث أبا طالب، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفشي عليه سره قبل أن يستعلن أمره، فقال: يا علي إذا لم تسلم فاكنتم².

ثم إن المستجيبين لدعوته صلى الله عليه وسلم كانوا يقومون بما يقوم به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيتصلون اتصالا شخصيا ببعض من يطمئنون إليهم من الأهل والأصحاب، كما فعل أبو بكر رضي الله عنه الذي فرح رسول الله صلى الله عليه وسلم لإسلامه بسبب صحبته وما كان يمتاز من صفات اجتماعية وشخصية مؤثرة، قال ابن هشام متحدثا عن هذه الخصائص والميزات: " فلما أسلم أبو بكر رضي الله عنه، أظهر إسلامه ودعا إلى الله ورسوله، وكان أبو بكر رجلا مؤلفا لقومه، محبا سهلا، وكان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بما وما كان فيها من خير وشر، وكان رجلا تاجرا ذا خلق ومعروف، وكان رجال من قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر: لعلمه وتجارته وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه"

وقد أسلم على يدي أبي بكر رضي الله عنه مجموعة من رجالات قريش منهم: عمرو بن العاص وقد لاحظ بعض الباحثين³ أن رسول الله عليه وسلم كان يحرص على أن تصل دعوته في هذه المرحلة الأولى إلى مناطق عديدة من مكة، و تمس فئات اجتماعية مختلفة، وهو ما كان يساعد على انتشارها بسرعة في مكة وما قرب منها، ويدللون على ذلك بالتنبيه على الانتماء القبلي والاجتماعي

1- الحادثة تبرز البعد الاجتماعي في شخصيته صلى الله عليه وسلم، سجلها ابن هشام فقال: "كان من نعمة الله على علي بن أبي طالب، ومما صنع له وأريد به من الخير، أن قريشا أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب ذا عيال كثير، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس عمه، وكان من أيسر بني هاشم: يا عباس، إن أذاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة، فانطلق بنا فلنخفف عنه من عياله، آخذ من بنيه رجلا وتأخذ أنت رجلا، فنكفهما عنه، فقال العباس: نعم، فانطلقا حتى أتيا أبا طالب فقالا له: إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه، فقال لهما أبو طالب: إذا تركتما لي عقيلا فاصنعا ما شئتما، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا فضمه إليه، واخذ العباس جعفر فضمه إليه، فلم يزل علي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بعثه الله تبارك وتعالى نبيا". عبد السلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، ص:62.

2- ابن كثير، السيرة النبوية، 428/1.

3- منير الغضبان، المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص: ، الطيب برغوث، المنهج النبوي..، ص:

للمستجيبين لدعوته في هذه المرحلة، فمن ناحية الانتماء القبلي: 13 فردا من بني هاشم، 7 أفراد من بني مخزوم، 4 أفراد من بني تيم، 8 أفراد من بني عدي، 6 أفراد من بني زهرة...، أما من الناحية الاجتماعية: 31 فردا من وجهاء قريش وأبنائهم، 14 فردا من مواليتهم وحلفائهم، 12 امرأة... وكانت نتيجة جهود رسول الله صلى الله عليه وسلم في إيصال الدعوة في هذه المرحلة أن التحق بدعوته ما يزيد على الستين فردا، يتوزعون على مختلف القبائل والمستويات الاجتماعية. ويعد هذا العدد ببعده الجغرافي والاجتماعي إنجازا كبيرا لرسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه المرحلة الأولى من دعوته.

6- منهجه صلى الله عليه وسلم في إيصال الدعوة في المرحلة الثانية:

كان الإطار المكاني لهذه المرحلة هو مكة، أما إطارها الزماني فيبدأ بنزول قول الله عز وجل: (وأندر عشيرتك الأقربين) [في السنة الثالثة للبعثة.

وكان هدف الدعوة وفقا لما حدده النص القرآني إيصال النبي صلى الله عليه لدعوته إلى أبناء عشيرته. والسؤال الذي قد يتبادر إلى الذهن هو ما الحكمة من توجيه النص القرآني الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أن يخص عشيرته الأقربين بالإندار؟.

الإجابة التي قدمها بعض المؤلفين في السيرة عن هذا السؤال هي أن هذا التوجيه فيه إرشاد إلى درجات المسؤولية المنوطة بكل مسلم عموما وبأصحاب الدعوة خصوصا، فأدني درجات هذه المسؤولية هي مسؤولية الشخص عن نفسه، والدرجة التي تليها هي مسؤوليته عن أهله وذوي قرابته، والثالثة مسؤولية العالم عن أهل حيه أو بلدته¹.

وهناك أمر آخر دعا إلى تخصيص العشيرة الأقربين بالدعوة في هذه المرحلة، وهو أن العشيرة في المجتمع القرشي والعربي عموما كانت هي الإطار الذي يضمن حماية الفرد، فالعشيرة القوية يتمتع أفرادها بالهيبه والتقدير، والضعيف في ذلك المجتمع هو من لا عشيرة له، أو من كانت عشيرته ضعيفة القوة. وكان حرمان الشخص من حماية عشيرته أمرا خطيرا، إذ كان يعني " إباحة دمه وكل ما يملكه، وليس على من يعتدي عليه من سبيل أو خوف"².

1- البوطي، فقه السيرة، ص: 100-101.

2- وحيد الدين خان، الدين الكامل، الطبعة العربية الأولى، الرسالة للإعلام الدولي، 1992، ص: 233.

فكان الهدف من إنذار العشيرة الأقربين هو أولاً لأنهم الأولى، وثانياً لتكون صورة دعوته صلى الله عليه وسلم واضحة في أذهانهم، رجاء استجابتهم أو على الأقل الاستمرار في حمايته صلى الله عليه وسلم باعتباره فرداً منهم، خاصة في هذه المراحل الأولى من دعوته.

وقد أشار العلامة ابن خلدون رحمه الله في مقدمته إلى هذا الأمر وهو يبين سنة تحكم سير الدعوات، قال رحمه الله تحت عنوان "في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم": "إن كل أمر تحمل عليه الكافة، فلا بد له من العصبية، وفي الحديث الصحيح: (ما بعث الله نبياً إلا في منعة من قومه)¹، وإذا كان هذا في الأنبياء وهم أولى الناس بحرق العوائد، فما ظنك بغيرهم أن لا تخرق لهم العادة في الغلب بغير العصبية.

..وهكذا كان حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في دعوتهم إلى الله بالعشائر والعصائب، وهم المؤيدون من الله بالكون كله لو شاء، لكنه إنما أجرى الأمور على مستقر العادة، والله عليم حكيم"².

ومما يبين هذا الأمر بشكل واضح قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه الإمام أحمد في مسنده لأفراد عشيرته: "من يضمن عني ديني، ويكون معي في الجنة، ويكون خليفتي في أهلي". ولتحقيق هذا الهدف، أضاف رسول الله صلى الله عليه إلى الاتصال الشخصي الاتصال الجمعي، حيث كان يتصل بأفراد عشيرته في أماكن مختلفة، تارة عند جبل الصفا، وتارة أخرى يدعو بعضهم لوليمة في بيته.

وقد سجلت لنا كتب السنة والسيرورة صوراً عن اتصال رسول الله صلى الله عليه وسلم بجماعات من أبناء عشيرته نذكر منها هذين النموذجين:

- ما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس قال: لما أنزل الله { وأندرك عشيرتك الأقربين } [أتى النبي صلى الله عليه وسلم الصفا فصعد عليه ثم نادى: يا صباحاه، فاجتمع الناس بين رجل يجيء إليه، وبين رجل يبعث رسوله، فقال رسول الله: يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني كعب، أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني؟، قالوا: نعم، قال: فإني نذير

1-

2- المقدمة، ص: 148.

لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: تبا لك سائر هذا اليوم، أما دعوتنا إلا لهذا؟، وأنزل الله قوله: {تبت يدا أبي لهب وتب} [المسد:1] 1.

ونلاحظ في هذا النموذج أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اختار مكان اتصاله بعشيرته وهو بالقرب من جبل الصفا، و هو مكان مرتفع ليظهر أمام أعين الحضور ويصل صوته إليهم، كما استخدم صيغة استغاثة كانت معروفة عندهم للفت انتباههم ودفعهم إلى الحضور، ثم استخدم معهم أسلوب الاستدراج ليقم الحجة عليهم، ويلزمهم بتصديق ما سيخبرهم به، ونحس من خلال ردود فعلهم أن هذا الأسلوب فعل فعله فيهم، الأمر الذي دفع بأبي لهب إلى أن يتدخل مستعملاً دهاءه للتقليل من تأثير كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم، كما نلاحظ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يهتم بالرد على عمه أبي لهب.

- أخرج أحمد عن علي قال: دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بني عبد المطلب وهم رهط وكلهم يأكل

الجدعة ويشرب الفرق، فصنع لهم مدا من طعام، فأكلوا حتى شبعوا، وبقي الطعام كما هو كأنه لم يمس، ثم دعا بعس فشربوا حتى رءوا، وبقي الشراب كأنه لم يمس ولم يشرب، وقال: يا بني عبد المطلب إني بعثت إليكم خاصة وإلى الناس عامة، فقد رأيتم من هذه الآية ما رأيتم، فأيكم يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي، قال: فلم يقم إليه أحد، قال: فقامت إليه وكنت أصغر القوم، قال: فقال اجلس، ثم قال ثلاث مرات كل ذلك أقوم إليه فيقول اجلس، حتى كانت الثالثة ضرب يده على يدي"2.

ونلاحظ هنا طريقة أخرى في اتصاله صلى الله عليه وسلم بأفراد عشيرته، حيث دعاهم إلى مأدبة ترغيباً لهم في الحضور، وفتحاً لنفوسهم لكلامه، وأراهم آية دالة على نبوته، ثم أشعرهم بأهميتهم عنده فذكر لهم أنه بعث إليهم خاصة وإلى الناس عامة، ثم دعاهم لمبايعته ونصرته.

وكان من نتائج عمله في هذه المرحلة، أن استجاب له بعض أفراد عشيرته، وأن أصبحت دعوته واضحة عند أغليبيتهم، كما نلمسه في جواب أبي طالب حين عرض عليه صلى الله عليه وسلم دعوته حيث قال: "أي ابن أخي، إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه، ولكن والله لا يخلص

1-

2-

لك بشيء تكرهه ما بقيت"1، كما نلمسه كذلك في استماتة عشيرته في حمايته والدفاع عنه، ولو كلفهم ذلك حياتهم، كما نلاحظه بوضوح في عدم قبولهم تسليمه صلى الله عليه وسلم رغم شدة وشراسة الحصار الذي فرض عليهم في شعاب مكة.

وحين مات عمه أبو طالب، وتولى أبو لهب سيادة العشيرة رفض حمايته، فتعرض صلى الله عليه وسلم لأذى كثير، وأغلقت في وجه دعوته الكثير من الأبواب، وقد سمّي هذا العام الذي فقد فيه حماية عشيرته بعام الحزن.

7- منهجه صلى الله عليه وسلم في إيصال الدعوة في المرحلة الثالثة:

وقد أشار إلى هذه المرحلة النص القرآني: { فاصدع بما تومر وأعرض عن المشركين } [الحجر:94]، فعن ابن مسعود قال: ما زال النبي صلى الله عليه وسلم مستخفياً حتى نزلت { فاصدع بما تومر }، فخرج هو وأصحابه.

بقي الإطار المكاني للدعوة هو مكة²، وقد امتد إطارها الزماني من آخر السنة الثالثة للبعثة إلى السنة العاشرة منها، حيث بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك بالبحث عن موطن جديد لدعوته. كان هدف دعوته صلى الله عليه وسلم في هذه المرحلة - كما أوضح ابن القيم - إنذار قومه من أهل مكة.

ولتحقيق هذا الهدف اعتمد رسول الله صلى الله عليه وسلم طرقاً ووسائل عديدة، نذكر منها:

● الاتصال الشخصي: حيث استمر صلى الله عليه وسلم في الاتصال بأفراد قومه اتصالاً شخصياً،

لفعالية هذا النوع من الاتصال وقوة تأثيره، وركز صلى الله عليه وسلم في هذه المرحلة على بعض أشرف قريش ووجهائها، لما كان يرجوه من خير يعود على الدعوة بإسلامهم، كما يدل على ذلك مواقف عديدة من سيرته صلى الله عليه وسلم، منها ما ذكره ابن كثير رحمه الله أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا لقي أبا جهل يعرض عليه دعوته ويقول مخاطباً له: "يا أبا الحكم هلم إلى الله وإلى

1- عبد السلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، ص:65، البوطي، فقه السيرة، ص:99.

2- قد نتساءل لم كل هذا التركيز على مكة؟، والجواب كما أشار إلى ذلك أحد الدارسين أن مكة هي المكان الذي يجمع إليه الناس من كل مكان، الأمر الذي يسهل إيصال صوت الدعوة إلى كل مكان في الجزيرة العربية وغيرها، وهو أمر لا يمكن الحصول عليه في أي بلد آخر". فضل الله، خطوات على طريق الإسلام، ص: .

الرسول..¹، كما يدل عليه كذلك ما رواه ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب، وكان يتصدى لهم كثيرا ويحرص عليهم أن يؤمنوا، فأقبل إليه رجل أعمى يقال له عبد الله بن أم مكتوم يمشي وهو يناجيهم، فجعل عبد الله يستقرئ النبي صلى الله عليه وسلم آية من القرآن، وقال: يا رسول الله علمني ما علمك الله، فأعرض عنه صلى الله عليه وسلم وعبس في وجهه وتولى وكره كلامه، وأقبل على الآخرين، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم نجواه وأخذ ينقلب إلى أهله.. أنزل الله تعالى: {عبس وتولى أن جاءه الأعمى...} [عبس: 1-11]2.

ولا شك أنه كان لأصحابه ممن أسلم رجالا ونساء دورا في إيصال الدعوة إلى غيرهم من خلال الاتصال الشخصي في هذه المرحلة.

- **الاتصال الجمعي:** حيث كان صلى الله عليه وسلم يقصد الأماكن التي يجتمع الناس فيها، ويعمل على إيصال الدعوة إليهم فيها.

والأماكن التي كانت محلا لاجتماع أعداد معتبرة من الناس في مكة هي: الأسواق وأماكن أداء الشعائر في موسم الحج و الأماكن التي تعقد فيها المجالس، ونورد فيما يلي نماذج عن جهود رسول الله صلى الله عليه وسلم في إيصال الدعوة إلى أهل مكة في هذه الأماكن.

- **الأسواق:** كانت الأسواق تعقد بشكل دوري في مكة في تواريخ محددة، وهي أقرب إلى ما يسمى في عصرنا بالمعارض، فتكون محلا للبيع والشراء، كما تكون كذلك مكانا لتباري الشعراء والخطباء، وكان من أشهر هذه الأسواق: سوق عكاظ من الأول إلى العاشر من ذي القعدة، وسوق بجنه من العشرين إلى الثلاثين من ذي القعدة، وسوق ذي الحجاز من الأول إلى الثامن من ذي الحجة³، فكان صلى الله عليه وسلم يقصد هذه الأسواق فيتصل بكل من يقصدها.

ومن اتصاله صلى الله عليه وسلم بالناس في الأسواق ما أخرجه الإمام أحمد عن رجل من بني مال بن كنانة قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بسوق ذي الحجاز يتخللها، يقول: "أيها الناس قولوا

1- ابن كثير، السيرة النبوية، 507/1.

2- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 211/7-212. سؤال يطرح ما الحكمة التي نستخلصها من عتاب الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم في هذا الموقف؟.

3- محمد سيد محمد، المسؤولية الإعلامية في الإسلام، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب-الجزائر، 1986، ص:148-149.

لا إله إلا الله تفلحوا"، قال: وأبو جهل يحثي عليه التراب، ويقول: لا يغرنكم هذا عن دينكم، فإنما يريد لتتركوا آهتكم، وتتركوا اللات والعزى، وما يلتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم¹.

يلفت انتباهنا في هذه الرواية قول هذا الرجل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن كان يتخلل السوق، ومعناه يطوفها مكانا مكانا، ويتصل بأكثر عدد ممن يقصدها.

كما يلفت انتباهنا شعور قريش بخطورة تأثير ما كان يقوم به رسول الله صلى الله عليه وسلم من عمل، فينبري الأشراف منهم من أمثال أبي جهل للتشويش عليه صلى الله عليه وسلم وصرف الناس عنه، وفي المقابل عدم انشغال رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرد على أبي جهل، واهتمامه فقط بإيصال دعوته إلى الناس.

- **أماكن الشعائر في مواسم الحج:** في موسم الحج يقدم الناس إلى مكة من مكة وضواحيها، ومن أطراف الجزيرة العربية لأداء مناسك الحج، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغل هذه الفرصة فيجتهد في إيصال دعوته إليهم.

أخرج الطبراني عن مدرك قال: حججت مع أبي فلما نزلنا منى إذا نحن بجماعة، فقلت لأبي: ما هذه الجماعة؟، قال: هذا الصابئ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا"².

وكانت قريش تدرك خطورة استغلال رسول الله صلى الله عليه وسلم لموسم الحج في إيصال دعوته، فكان زعماءها يجتمعون قبل الموسم لتدارس الأمر و رسم خطة لصرف الناس عنه، ليتفقوا بعد نقاش على ما اقترحه المغيرة حين قال: "إن أقرب القول فيه أن تقولوا ساحر، جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وزوجه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وعشيرته"³، ثم يجلسون على السبل فلا يمر أحد إلا حذروه منه، وذكروا له أمره³.

- **المجالس:** فقد كان صلى الله عليه وسلم يقصد أماكن جلوس الناس، فيجلس إليهم، ويدعوهم إلى الله، فقد ذكر ابن هشام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا جلس مجلسا فذكر فيه بالله،

1-

2-

3- تهذيب السيرة النبوية، ص: 69.

وحذر قومه ما أصاب الأمم قبلهم، يأتي بعده النضر بن الحارث ليخلفه في المجلس، فيحدث الجلوس ببعض قصص ملوك فارس ليمحو أثر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم¹.

الصحف المكتوبة: فقد كان الوحي ينزل عليه صلى الله عليه وسلم، فيأمر بكتابتها، للمحافظة عليه، وتبليغه للمسلمين، وأيضا من يرغبون في دعوته إلى الإسلام ممن يعرف القراءة والكتابة.

ويبين لنا حادث إسلام عمر الدور الذي لعبته الصحيفة في إيصال الدعوة إلى الناس في هذه المرحلة، قال ابن هشام: " فرجع عمر عامدا إلى أخته وختنه وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة فيها (طه) يقرئها إياها، فلما سمعوا حس عمر تغيب خباب في بعض البيت، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها ، وقد سمع عمر حين دنا من البيت قراءة خباب عليهما، فلما دخل قال: ما هذه الهيمنة التي سمعت؟، قال له: ما سمعت شيئا، قال: بلى والله، لقد أخرجت أنكما تابعتما محمدا على دينه، وبطش بختنه سعيد بن زيد، فقامت إليه أخته فاطمة لتكفه عن زوجها فضرها فشجها، وقال لأخته أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤون آفئا، أنظر ما الذي جاء به محمد -وكان عمر كاتبًا- ، فلما قال ذلك، قالت له أخته: إنا نخشاك عليها، قال: لا تخافي، وحلف لها بأهته ليردنها إذا قرأها إليها، فلما قال ذلك طمعت في إسلامه.. فأعطته الصحيفة وفيها(طه) فقرأها، فلما قرأ صدرا ، قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه.."².

وكنتيجة لجهوده صلى الله عليه وسلم في إيصال الدعوة في هذه المرحلة بهذه الطرق الثلاث اتسعت دائرة المستجيبين لدعوته صلى الله عليه وسلم في مكة، وبلغ صداها إلى خارج مكة، وشعر أشرف قريش بخطورة انتشار دعوته بهذه الوتيرة السريعة فلجأوا إلى استخدام أساليب كثيرة للحد من عدد المستجيبين لها.

8- منهجه صلى الله عليه في إيصال الدعوة في المرحلة الرابعة

امتد الإطار المكاني لهذه المرحلة خارج الدائرة القرشية، أما إطارها الزماني فيمتد من السنة العاشرة للبعثة إلى السنة السادسة للهجرة (19 للبعثة)، لأنه بداية من السنة السابعة للهجرة بدأ صلى الله عليه وسلم في إيصال الدعوة إلى خارج الجزيرة العربية.

1- المصدر السابق، ص:78.

2- المصدر نفسه، ص:89.

وكان هدف الدعوة في هذه المرحلة هو البحث عن موطن جديد للدعوة، والعمل على إيصال الدعوة إلى العرب كافة.

وقد تطلب تحقيق هذا الهدف الكبير بذل جهود كبيرة، واستخدام وسائل عديدة، نذكر منها:
- رحلته صلى الله عليه وسلم إلى الطائف: لما سدت أبواب الدعوة أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة بعد وفاة عمه أبي طالب ورفض عمه أبي لهب الاستمرار في ضمان حماية بني هاشم له، بدأ صلى الله عليه وسلم في البحث عن موطن جديد لدعوته، فتوجه إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف، لاعتبارين اثنين، أولهما أنه كان له صلى الله عليه وسلم أحوال من أشرف ثقيف فرجا نصرته، وثانيهما أن أهل ثقيف معروفون بقوتهم وشدة بأسهم في القتال، فلا يضمن حماية من سخطت قريش عليه إلا قبيلة مثلها.

توجه صلى الله عليه وسلم بدعوته إلى سادات ثقيف، فردوا عليه ردا منكرا، وواجهوه بما لم يتوقع من الغلظة والأذى، قال ابن هشام وهو يسجل لنا ما حدث: "لما انتهى صلى الله عليه وسلم إلى الطائف، عمد إلى نفر من ثقيف، هم يومئذ سادة ثقيف وأشرفهم، وهم اخوة ثلاثة عبد ياليل بن عمرو بن عمير ومسعود بن عمرو بن عمير وحبيب بن عمرو بن عمير، فجلس إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهم إلى الله وكلمهم بما جاءهم به من نصرته على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه، فقال له أحدهم وهو يمرط ثياب الكعبة: إن كان الله قد أرسلك، وقال الآخر: أما وجد الله أحدا يرسله غيرك؟، وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدا، لئن كنت رسولا من الله كما تقول لأنت أعظم خطرا من أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله فما ينبغي لي أن أكلمك"1.

فقام صلى الله عليه وسلم من عندهم وطلب منهم أن يكتبوا أمر مقدمه إليهم عن قريش، فلم يجيبوه، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم وصبيانهم، يسبونهم ويصيحون به ويرمونهم بالحجارة حتى أقدموا قدميه الشريفتين صلى الله عليه وسلم2.

وكان هذا اليوم من أشد الأيام على رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته، فقد روى البخاري ومسلم عن عائشة أنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: هل أتى عليك يوم كان أشد عليك

1- تهذيب سيرة ابن هشام، ص: 109.

2- البوطي، فقه السيرة، ص: 136.

من يوم أحد؟، فقال: لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة أظلنتني، فنظرت فإذا جبريل، فناداني فقال: إن الله عز وجل قد سمع قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت، قال: فناداني ملك الجبال وسلم علي، ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا شريك له"1 .

- عرض دعوته على القبائل العربية القادمة إلى مكة في موسم الحج: بعد عودته صلى الله عليه وسلم من

الطائف اضطر لدخول مكة في جوار مطعم بن عدي، وازدادت أوضاع دعوته سوءاً، فكان صلى الله عليه وسلم يجتهد في البحث عن موطن جديد لدعوته، فكان يتحين فرصة موسم الحج، فيعرض نفسه على القبائل العربية الوافدة إلى مكة" يدعوهم إلى الله، ويخبرهم أنه نبي مرسل، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه"2.

وهذه صورة عن الجهود التي كان يبذلها صلى الله عليه وسلم في هذه المرحلة:

أخرج الحافظ أبو نعيم عن العباس قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أرى لي عندك ولا عند أخيك منعة، فهل أنت مخرجي إلى السوق غدا حتى نقر في منازل قبائل الناس، وكانت مجمع العرب، قال فقلت هذه كندة ولفها، وهي أفضل من يحج البيت من اليمن، وهذه منازل بكر بن وائل، وهذه منازل عامر بن صعصعة، فاختر لنفسك؟، قال: فبدأ بكندة فأتاهم فقال: ممن القوم؟، قالوا: من أهل اليمن، قال: من أي اليمن؟، قالوا: من كندة، قال: من أي كندة؟، قالوا: من بني عامر بن معاوية، قال: فهل لكم إلى خير؟، قالوا: ما هو؟، قال: تشهدون أن لا إله إلا الله، وتقيمون الصلاة وتؤمنون بما جاء من عند الله، فقالت كندة: إن ظفرت تجعل لنا الملك من بعدك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الملك لله يجعله حيث يشاء، فقالوا: لا حاجة لنا فيما جئتنا به، فانصرف من عندهم فأتى بكر بن وائل، فقال: ممن القوم؟ قالوا: من بكر بن وائل، فقال: من أي

1-

2- تهذيب سيرة ابن هشام، ص: 112.

بكر بن وائل؟، قالوا: من بني قيس بن ثعلبة، قال: كيف العدد؟، قالوا: كثير مثل الثرى، قال: كيف المنعة؟، قالوا: لا منعة جاورنا فارس فنحن لا نمتنع منهم ولا نجير عليهم، قال: فتجعلون لله عليكم إن هو أبقاكم حتى تنزلوا منازلهم وتسكنحوا نساءهم وتستعبدوا أبناءهم أن تسبحوا ثلاثا وثلاثين، وتحمدوه ثلاثا وثلاثين، وتكبروه ثلاثا وثلاثين، قالوا: من أنت؟، قال: إني رسول الله ثم انطلق، فلما ولى عنهم، وكان عمه أبو لهب يتبعه فيقول للناس: لا تقبلوا قوله، ثم مر أبو لهب، فقالوا: هل تعرف هذا الرجل؟، قال: نعم، هذا في الذروة منا، فعن أي شيء تسألون؟، فأخبروه بما دعاهم إليه، وقالوا: زعم بأنه رسول، قال: لا ترفعوا برأسه قولا فإنه مجنون، يهدي من أم رأسه، قالوا: قد رأينا ذلك حين ذكر من أمر فارس ما ذكره¹.

ويلفت انتباهنا في هذه الرواية أمور نذكر منها:

- استعانته صلى الله عليه وسلم بعمه العباس - وهو لا يزال على شركه - لمعرفة قبائل العرب ومنازلها في موسم الحج، وذلك لمعرفته بخبرة عمه.

- سؤاله صلى الله عليه وسلم كل قبيلة قبل دعوتها، وذلك لبيان الاهتمام بها، وللحصول على معلومات مباشرة تستفيد منها دعوته صلى الله عليه وسلم.

- نلاحظ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يربط في دعوته لهذه القبائل بين الاستجابة لدعوته وتحقيق بعض المكاسب لهم.

وقد أثمرت جهود رسول الله صلى الله عليه وسلم في السنة الحادية عشر للبعثة حين عرض نفسه على رهط من الخزرج عند العقبة (موضع بين منى ومكة منا ترمى جمرة العقبة)، حيث التقى بهم صلى الله عليه وسلم فسألهم: من أنتم؟، قالوا: نفر من الخزرج، قال: أمن موالي يهود؟ قالوا: نعم، قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟، قالوا: بلى، فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فأجابوه فيما دعاهم إليه، وقالوا إنا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى الله أن يجمعهم بك، فسنقدم إليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبنك من هذا الدين، فإن يجمعهم الله بك فلا رجل أعز منك.

1- سعيد حوى، الرسول، ص: 110.

فرجعوا إلى بلادهم، ودعوا إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا ووصلتها دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم¹.

فلما كان الموسم القادم حضر اثنا عشر رجلا منهم، فبايعوه على الالتزام بالإسلام، وأرسل معهم مصعب بن عمير يقرئهم القرآن ويعلمهم أحكام الإسلام.

وفي الموسم الذي بعده، اجتمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشعب خفية، وكانوا ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتان، فبايعوه على أن يمنعوه مما يمنعون نساءهم وأبناءهم².

- إرسال الدعوة من أصحابه إلى عدد من القبائل العربية:
حين استقر الأمر برسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة، أرسل الدعوة من أصحابه إلى قبائل في الجزيرة العربية لإيصال الدعوة إليها.

عن الأحنف بن قيس قال: بينما أنا أطوف بالبيت في زمن عثمان، إذ أخذ رجل من بني ليث بيدي، فقال: ألا أبشرك؟ قال: بلى، قال: أتذكر إذ بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قومك فجعلت أعرض عليهم الإسلام وأدعوهم إليه، فقلت أنت إنك لتدعوننا إلى خير وتأمروا به، وإنه ليدعو إلى خير، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "اللهم اغفر للأحنف"³.

وفي السنة الثالثة للهجرة بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم مجموعة من الدعوة إلى قبائل عضل والقارة، ليعلموهم شؤون دينهم، فقتلوا غدرا.

وفي السنة الرابعة بعث سبعين رجلا من خيار المسلمين إلى أهل نجد بطلب من عامر بن مالك الذي قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: لو بعثت رجلا من أصحابك إلى أهل نجد، رجوت أن يستجيبوا لهم، فقال عليه الصلاة والسلام: إني أخشى عليهم أهل نجد، فقال عامر: أنا لهم جار، فابتعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك.

وقد قتل هؤلاء الدعوة كذلك غدرا، فتأثر رسول الله صلى الله عليه وسلم لمقتلهم، ولبث شهرا يقنت في صلاة الصبح قبائل سليم وذكوان وبني لحيان وعصية⁴.

1- تهذيب سيرة ابن هشام، ص: 115.

2- المصدر نفسه، ص: 118.

3- سعيد حوى، الصدر السابق، ص: 111.

4- البوطي، فقه السيرة، ص: 253-254.

– استقبال الوفود بالمدينة:

حين وصلت أخبار دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم الكثير من قبائل الجزيرة العربية وما جاورها، أرسلت هذه القبائل وفودا إلى المدينة للتعرف على دعوته صلى الله عليه وسلم من خلال واقع المجتمع الذي أنشأه، فكان صلى الله عليه وسلم يهيب الجو الذي يرغب هذه الوفود في الإسلام، فكان صلى الله عليه وسلم إذا سمع بقدوم وفد حسن ثيابه وأمر أصحابه بذلك، كما كان يخصص لهم دارا للضيافة يستقبلهم فيها، دارا لبعض أصحابه مثل دار حرملة بنت الحارث الأنصارية أو دار المغيرة بن شعبة، وأحيانا يكون نزول الوفد في المسجد، كما كان صلى الله عليه وسلم يحرص على تقديم الهدايا لهم.

وقد زاد عدد الوفود التي استقبلها صلى الله عليه وسلم في مدينته على السبعين وفدا، وقد سمي العام التاسع للهجرة بعام الوفود لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم استقبل فيه ما يزيد على الخمسة عشر وفدا 1.

وهذا مثال عن وفد من الشباب استقبله صلى الله عليه وسلم في المدينة لمدة عشرين ليلة، أخرج البخاري عن مالك بن الحويرث قال: "أتينا النبي صلى الله عليه وسلم ونحن شببية متقاربون، فأقمنا عنده عشرين ليلة، فظن أنا اشتقنا أهلنا، وسألنا عن تركنا من أهلنا، فأخبرنا وكان رفيقا رحيفا، فقال: ارجعوا إلى أهليكم فعلموهم ومروهم وصلوا كما رأيتموني أصلي، وإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحذكم، ثم ليؤمكم أكبركم" 2.

وقد أسلم بعض هذه الوفود كوفد فلسطين ووفد الأزد، وطلب بعضهم مهلة للتفكير في أمر الإسلام، ولعض الوفود أسلم بعض أفرادها ولم يسلم البعض الآخر.

9- منهجه صلى الله عليه وسلم في إيصال الدعوة في المرحلة الخامسة:

امتد الإطار المكاني لهذه المرحلة خارج الجزيرة العربية، أما إطارها الزماني فيمتد من السنة السادسة للهجرة إلى أن انتقل صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى، فاستمر أصحابه رضي الله عنهم يعملون على تحقيق أهدافها.

1- شلي، الدعوة الإسلامية في عهدنا المدني، ص: 495.

2-

وكان هدف الدعوة فيها هو الاستمرار في إيصال الدعوة إلى أطراف الجزيرة العربية والعمل على نشرها لتصل كل المخاطبين بها من إنس وجن.

ولتحقيق هذين الهدفين استمر النبي صلى الله عليه وسلم في اعتماد بعض الوسائل التي استخدمها في المرحلة السابقة، من إرسال الدعاة من أصحابه إلى أطراف الجزيرة العربية ضمن سرايا تتولى حمايتهم، وإعداد الجيوش وتوجيهها لإزالة بعض الموانع من طريق الدعوة، واعتمد في هذه المرحلة مسلكاً جديداً، وهو إرسال الرسل بالكتب إلى الملوك والأمراء.

ليصل صلى الله عليه وسلم بدعوته إلى أبعد مدى أرسل بالكتب إلى الأمراء والملوك يدعوهم إلى دين الله، وقد بلغ عدد هذه الكتب أكثر من خمسين كتاباً، واهتم بعض المؤلفين بجمعها في كتب، كما فعل محمد بن طولون الدمشقي في كتابه الموسوم "إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين"¹.

ويمكن تقسيم هذه الرسائل إلى قسمين، القسم الأول رسائله صلى الله عليه وسلم إلى الأمراء والملوك في الجزيرة العربية، والقسم الثاني رسائله صلى الله عليه وسلم إلى الملوك خارج الجزيرة العربية.

ففي القسم الأول كتب كثيرة منها كتبه صلى الله عليه وسلم إلى ملكي عمان، وإلى المنذر بن ساوي عظيم البحرين، وإلى ملك اليمامة، وإلى الحارث بن ثمر الغساني عامل قيصر على غسان.

ونورد كنموذج لكتبه ورسله صلى الله عليه وسلم في هذا القسم كتابه إلى ملكي عمان الذي حمه عمرو بن العاص رضي الله عنه، ومحتوى الكتاب: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى جيفر وعبد ابني الجلندي، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوكمما بدعاية الإسلام، أسلما تسلما، فإني رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، وإنكما إن أقرتما بالإسلام وليتكما وإن أبيتما فإن ملككما زائل، وخيل تحل بساحتكم وتظهر نبوتي على ملككما".

فلما قرأ عبد بن جلندي الكتاب سأل عمرو بن العاص عما يأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وينهى عنه، فقال عمرو: يأمر بطاعة الله عز وجل وينهى عن معصيته، ويأمر بالبر وصلة الرحم، وينهى عن الظلم والعدوان، والزنا، وشرب الخمر، وعن عبادة الحجر و الوثن والصليب، فقال عبد بن الجلندي: ما أحسن هذا الذي يدعو إليه، ولو كان أخي يتابعني لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به،

¹ - البيانوني، المدخل إلى علم الدعوة، ص: 81.

ولكن أخي أضن بملكه من أن يدعه ويصير تابعا... ثم إن عبدا أوصل عمروا إلى أخيه جيفر فتكلم معه حتى ألان قلبه وأسلم مع أخيه عبد¹.

وفي القسم الثاني كتبه صلى الله عليه وسلم إلى قيصر الروم، وإلى كسرى فارس، وإلى المقوقس عظيم القبط في مصر، وإلى النجاشي ملك الحبشة.

وكنموذج على هذه الكتب نسجله ما جاء في كتابه صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس عظيم القبط الذي حمله إليه حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه، وكان محتوى الكتاب: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فأني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإنما عليك إثم القبط".

وبعد أن قرأ المقوقس الكتاب قال لحاطب: ما منعه إن كان نبيا أن يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده؟، فرد عليه حاطب بقوله: ألسنت تشهد أن عيسى بن مريم رسول الله؟، فماله حيث أخذه قومه فأرادوا أن يقتلوه ألا يكون دعا عليهم أن يهلكهم الله حتى رفعه الله إليه؟.

قال المقوقس: أحسنت حكيم جاء من عند حكيم، ثم رد على كتاب رسول الله بكتاب جاء فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم، لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك، أما بعد، فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه، وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيا قد بقي وكنت أظنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك وبعثت لك بجاريتين لهما مكان عظيم في القبط وبثياب وأهديت إليك بغلة تركبها"².

والتزم صلى الله عليه وسلم في كتابة هذه الرسائل بمجموعة من الأمور حتى تؤدي دورها ويصل إلى المقصد من إرسالها، نذكر منها:

- التزم ببعض الأعراف المتداولة في الكتب بين الملوك، والتي منها ختمها بخاتم، فقد ذكر صاحب السيرة الحلبية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يكتب للملوك، قيل له: إنهم لا يقرؤون كتابا إلا إذا كان مختوما، فاتخذ صلى الله عليه وسلم خاتما من فضة، نقش عليه في ثلاثة أسطر محمد رسول الله³.

1- السيرة الحلبية، 3/ 253. نقلا عن الدعوة الإسلامية في عهدها المدني، ص: 492-493.

2- الطبقات الكبرى، 1/ 261.

3- السيرة الحلبية،

. كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث بالكتاب مع سفير مناسب للقوم الذين بعث إليهم الكتاب، له معرفة سابقة بهم كما كان الشأن لعبد الله بن حذافة الذي كان يتردد كثيرا على فارس، وله رجاحة في عقله تمكنه من الرد على الاستفسارات والاعتراضات التي قد يعترض بها على كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما يدل على رد حاطب على الإشكال الذي طرحه المقوقس، وتعليق المقوقس بقوله: " أحسنت حكيم جاء من عند حكيم".

. كما كان يكلف السفير بتعلم لغة من يرسل إليهم، قال ابن سعد: وأصبح كل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين بعث إليهم"¹.

ونذكر في الأخير أنه توجد صور في بعض الكتب يقال إنها صورة من الرسائل التي بعث بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي محفوظة في بعض المتاحف، ولكن جمهور الباحثين يؤكد أنها مزيفة، لوجود أخطاء إملائية ونحوها فيها².

كما أن هذه الكتب والرسائل بحاجة إلى دراساتها دراسة دعوية، ويمكن الانطلاق في هذه الدراسة من جهد رؤوف شلبي في كتابه الدعوة الإسلامية في عهدها المدني، حيث أورد محتوى هذه الكتب

وعلق تعليقا أوليا سجّل فيه بعض الملاحظات يمكن الاستفادة منها في دراسة وتحليل هذه الكتب³.

الإمام العلامة عبد الحميد بن باديس وجهوده الإصلاحية

من أعلام الدعوة الإسلامية في تاريخنا المعاصر الذين بذلوا جهودا كبيرة لإصلاح ما وجدوه في مجتمعهم من خلل وفساد، الإمام عبد الحميد بن باديس الذي تعتبر جهوده الإصلاحية حلقة مهمة ضمن سلسلة أعمال المصلحين في تاريخ الجزائر.

ونريد في هذه المحاضرة أن نعرف بشخصيته وجهوده الإصلاحية، بالتركيز على العوامل التي ساهمت في تكوين شخصيته الإصلاحية، وبيان أهداف ووسائل الإصلاح في عمله الإصلاحي.

1- الطبقات، 1/ 258.

2- المسؤولية الإعلامية في الإسلام، ص: 90.

3 - انظر كتابه الدعوة الإسلامية في عهدها المدني، ص: 488 - 495.

1- شخصية الشيخ عبد الحميد بن باديس

هناك عوامل ثلاث تؤثر في تكوين الشخصية وهي الأسرة والتعليم والبيئة، نقف عند دور كل منها في بناء شخصية ابن باديس.

أولاً- أسرة ابن باديس ونشأته

وُلد عبد الحميد بن باديس بمدينة قسنطينة، عاصمة الشرق الجزائري، في ثاني الربيعين من سنة 1307هـ، الموافق لليلة الجمعة 4 ديسمبر عام 1889م.

أمّه هي السيدة زهيرة بنت علي بن جلول، وتنتمي إلى أسرة عبد الجليل، وهي إحدى الأسر الشريفة المشهورة بالعلم والصلاح والثراء بقسنطينة¹.

وأبوه هو السيد مصطفى بن مكّي بن باديس، سليل أسرة مشهورة، تعدّت شهرتها الجزائر إلى المغرب العربي كلّه، لقرون عديدة، ولعبت دورا كبيرا في تاريخ المغرب الإسلامي سياسيا وعلميا ودينيا منذ القرن الرابع الهجري، فقد أسند الخليفة الفاطمي "المعزّ لدين الله" السلطة على أفريقيا والمغرب الأوسط إلى الجدّ الأول لأسرة ابن باديس وهو الأمير "بلكين بن زيري بن مناد" من عام 372 هـ إلى 373 هـ، وهو من قبيلة صنهاجة الأمازيغية المشهورة في الجزائر والمغرب الإسلامي².

أما أبوه فقد كان مندوبا ماليا وعضوا في المجلس المالي ومستشارا بلديا، و كان من أعيان مدينة قسنطينة وأصحاب الفضل والخلق فيها، وقد عرف بدفاعه الدائم عن مطالب السكان المسلمين بالعمالة القسنطينية³.

ومن الأعمال الدينية الجليلة لوالد عبد الحميد أنّه بنى مسجد سيدي قموش، وجعل فيه معلّما يعلم القرآن الكريم على نفقته⁴.

ولا شكّ أنّ ابن باديس أخذ بقسط من هذه الخصائص العلمية والسياسية التي تميّز بها كثير من أفراد أسرته عبر التاريخ، وهو ما يلحظه كلّ دارس لشخصيته العلمية والإصلاحية.

1 - عمار طالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج1، دار اليقظة العربية، بيروت (لبنان)، 1388هـ/ 1986م، ص.74.

2 - تركي رابح: الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، ط4، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص.160-161.

3 - عمار طالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج1، مرجع سابق، ص.74.

4 - علي مرحوم: نحات من حياة الشيخ ابن باديس، مجلة الأصالة، ع.24، الجزائر، مارس-أفريل 1982م، ص. 113.

هذا عن الوراثة وما انتقل إلى ابن باديس عن طريقها، أما عن دور والديه في تنشئته وتربيته، فقد أكد الشيخ ابن باديس في مناسبات كثيرة على دور والده في توجيهه وتربيته، ودوره في كفاله ليتفرغ لدراسة كاملا لمهامه العلمية والإصلاحية، فقد قال ابن باديس في الكلمة التي ألقاها بمناسبة ختمه لدرسه في التفسير: "إنّ الفضل يرجع أولا إلى والدي الذي ربّاني تربية صالحة، ووجهني وجهة صالحة، ورضي لي العلم طريقة أتبعها، ومشربا أردّه، وقاتي وأعاشني وبرّاني كالسّمهم وراشني وحماني من المكاره صغيرا وكبيرا، وكفاني كُلف الحياة"¹.

ويكفي لعرف عظم أثر والده في شخصيته أن نعلم أن أمنية والده كانت أن يجعل منه أحد علماء المسلمين في الجزائر، فكان يقول له: "يا عبد الحميد أنا أكفيك أمر الدنيا، أنفق عليك، وأقوم لك بكل أمورك، ما طلبت شيئا إلا ليّيت طلبك كلمح البصر، فاكفني أمر الآخرة، كن الولد الصالح الذي ألقى به وجه الله"².

أما عن دور أمّه، فلا نجد تفاصيل فيما كتب عن شخصية ابن باديس تبين الجوانب التي كانت تبنيها في ابنها، لكننا لا نشك في أنّه كان لها حظٌّ في رعايته، وكيف لا يكون لها ذلك وهي سليلة أسرة عرفت بالعلم، ومما يدلّ على حرصها على أن يكون لابنها مكانة في قومه ودور في خدمة مجتمعه كما لأجداده من جهة أبيه وأمه ما يذكره ابن باديس من عظيم فرحتها بعودة ابنها من تونس وقد أصبح عالما، وتعبيرها عن ذلك بزغرودة تركت أثرها العظيم في نفس ابنها، وجعلته يشعر أنّه عاد إنسانا آخر، وأنّه تأهل للقيام بدور كبير في مجتمعه، يقول ابن باديس عن هذه اللحظة والأثر الذي تركته في نفسه: "إنّ تلك الزغرودة التي قابلتني بها أمّي يوم عدت من تونس ما تزال ترنّ في أذني، ولن أنساها ما حَيّيت"³.

ويعتبر هذا الوسط الأسري الذي ولد ابن باديس ونشأ فيه، المحيط الأول الذي حضّره للمهمة الإصلاحية التي تنتظره، كما يشهد هو نفسه في الكلمة التي مرّت معنا حين يتحدث عن فضل والده عليه

ثانيا- دراسة ابن باديس وأساتذته

- 1 - عبد الحميد بن باديس: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ط1، دار البعث، قسنطينة (الجزائر)، 1402هـ/1982م، ص. 475.
- 2 - بسام العسلي: عبد الحميد بن باديس وبناء قاعدة الثورة الجزائرية، ط1، دار النفائس، 1982م، ص. 95.
- 3 - عبد القادر فضيل ومحمد الصالح رمضان: المرجع السابق، ص. 29.

كان والد ابن باديس حريصا على تربية ابنه تربية إسلامية، فلم يُدخله المدارس الفرنسية كبقية أبناء العائلات المشهورة، بل وجهه إلى أحد الكتاتيب القرآنية وهو في سن الخامسة من عمره (1894م)، ليحفظ القرآن الكريم على يد الشيخ محمد بن المدّاسي، بإحدى زوايا القادرية في حي السوق، حيث كانت أسرته من أتباع هذه الطريقة، وكذلك كان معلّمه من أتباعها¹، فحفظ عليه القرآن الكريم، ولم يتجاوز عمره ثلاث عشرة سنة²، فنشأ منذ الصّغر في رحاب القرآن الكريم. وقد أعجب معلّمه بمجودة حفظه وحسن تلاوته، واستقامة خلقه، فقَدّمه لإمامة المصلين في صلاة التراويح في شهر رمضان في الجامع الكبير بمدينة قسنطينة، فصلى الناس وراءه رغم صغر سنه ثلاث سنوات متوالية³.

وبعد استكمال حفظ القرآن الكريم اختار له والده أحد علماء مدينة قسنطينة المشهورين بالعلم والصلاح الشيخ حمدان الونيسي، وكان الونيسي أستاذا في المدرسة الرسمية الفرنسية في الكتانية بقسنطينة⁴، وكان منتميا إلى الطريقة التيجانية سالكا منهجها⁵، وقد قال فيه العلامة بخيت المطيعي: "ذاك رجل عظيم"⁶، فتلقّى عنه العلوم العربية والإسلامية في مسجد سيدي محمد النّجار وذلك سنة 1903م.

وواصل التلقي عن هذا الشيخ إلى غاية سنة 1908م حيث هاجر أستاذه إلى المدينة المنورة، فسافر ابن باديس بتشجيع من والده إلى تونس لاستكمال تعليمه الثانوي والعالي، بجامع الزيتونة، وأهلته الدروس التي تلقاها على أستاذه الونيسي أن يلتحق بالسنة الرابعة من التعليم الزيتوني، فاختصر مراحل الدراسة بالزيتونة من سبع سنوات إلى ثلاث سنوات⁷.

-
- 1 - عبد الكريم بوصفصاف: المرجع السابق، ص. 213.
 - 2 - عمار طالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج1، مرجع سابق، ص. 74.
 - 3 - تركي رابح: الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، مرجع سابق، ص. 162.
 - 4 - أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص. 193.
 - 5 - عمار طالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج1، مرجع سابق، ص. 74.
 - 6 - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج3، مصدر سابق، ص. 101.
 - 7 - محمد الصالح الجابري: النشاط العلمي للطلبة الجزائريين بتونس 1900-1962، الدار العربية لكتاب، تونس، 1983، ص. 92.

وتفرّغ في هذه الفترة للدراسة والتحصيل، فكان: " لا يشارك الطلاب عبثهم وهوهم، بل كان يحبّ الخلوة في حجرته للمطالعة والتفكير"¹ ، يقول ابن باديس عن نفسه- كما يروي أحد تلاميذه- : " كنت أسهر الليالي للدراسة والمطالعة مستعينا ببعض المنبّهات، لكني حين أحسّ بالنوم يغالبني ولم تعد المنبّهات تنفع في دفعه عمدت إلى مطرح أضعه على الأرض وأضع مرفقاي على الأرض أو أحدهما فيلامس الآجر باردا فأستيقظ وأجدد مطالعتي أو مراجعتي حتى أفرغ منها"².

وتمكّن بهذا الإقبال على التحصيل والقراءة أن يقرأ كتباً كثيرة، وأن ينال حظاً وافراً من الثقافة الإسلامية في شتى فروعها، والأدب العربي بمختلف فنونه³.

و تأثر ابن باديس في هذه المرحلة بالوسط الاجتماعي الزيتوني في تعميق تكوينه السياسي، فكان يقرأ في الصحف والمجلات المقالات السياسية، ويتابع من خلالها الأحداث المحلية والعالمية⁴. ومكث بعد تخرجه سنة أخرى للتدريس في جامع الزيتونة، وكانت تلك عادة متبعة في كثير من الجامعات الإسلامية.

درس ابن باديس في الزيتونة على مجموعة كبيرة من الأساتذة الذين تميّزوا بفضائل علمية وأخلاقية لا نشك في انتقال أثرها إلى ابن باديس.

فمن أساتذته الأستاذ محمد الخضر بن الحسين (1877- 1958م) ، الطولقي الجزائري التونسي، الذي درّس بالزيتونة ثم هاجر إلى مصر سنة 1952م ليدرس بالأزهر ويتولّى مشيخته⁵. وقد درس عليه ابن باديس فن المنطق في جامع الزيتونة، كما كان يحضر له دروسه في تفسير البيضاوي في داره⁶.

يذكر له ابن باديس وهو يتحدث عن بعض فضائله اتصافه بفضيلتين عظيمتين، دفاعه المتواصل عن الإسلام وقضاياها، واعتباره للآخرة في جميع أعماله، قال فيه ابن باديس: " فما هوجم الإسلام في وقعة

1 - عبد الرحمان السلواي: عبد الحميد بن باديس مفسراً، د.ط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص. 41.

2 - أحمد بن ذياب: ابن باديس في ذكرى وفاته السادسة والثلاثين، الأصاله، ع32، ربيع الثاني 1396هـ، أبريل 1976م.

3 - تركي رابح: الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، ص.163.

4 - محمد الصالح الجابري: المرجع السابق، ص.21.

5 - عبد الكريم بوصفصاف: المرجع السابق، ص.220.

6 - المرجع نفسه ، ص.220.

إلا وكان للأستاذ حفظه الله دفاع أمتن من الفولاذ، وأرسخ من الجبال الراسيات...، وقد تعود من صدر حياته أن يحمل دنياه على آخرته، وأن يضحّي بالأولى في سبيل الأخرى إذا تعارضتا"¹.
ومن أساتذته الأستاذ محمد بن القاضي، ويذكر ابن باديس أنه درس عليه "قسما من البلاغة"².
ومن أساتذته الأستاذ أبو محمد بلحسن النجار، ويشهد له ابن باديس بالرسوخ في علم أصول الفقه، وامتلاكه لآليات البحث والتحقيق، فيقول: "العلامة الأصولي البحات الجامع... المفتي المالكي"³.
لم يذكر ابن باديس العلوم التي درسها على أستاذه هذا، ولكن هذه الشهادة تبين أنه درس عليه علمي الفقه وأصول الفقه.

ومن أساتذته الأستاذ البشير صفر الذي يُعتبر من أبرز علماء تونس، ومن القلائل الذين جمعوا بين التعليم العربي الإسلامي والتعليم الغربي الأوروبي، مع إتقانه لعدة لغات حية.
ومن أساتذته كذلك الأستاذ محمد الطاهر بن عاشور (1879-1973)، الذي يصفه ابن باديس مبينا بعض خصائصه العلمية فيقول: "العلامة المحقق الغواص النقاد"⁴، وقد استفاد منه ابن باديس كثيرا في تكوينه الأدبي، وقوى فيه الشعور بالانتماء العربي، يقول ابن باديس: "وإن أنس فلا أنسى دروسا قرأتها في ديوان الحماسة على الأستاذ ابن عاشور، وكانت من أول ما قرأت عليه، فحببني في الأدب والتفقه في كلام العرب، وبثت فيّ روحا جديدا في فهم المنظوم والمنثور، وأحيت مني الشعور بعزة العروبة والاعتزاز بها كما أعتزّ بالإسلام"⁵.

ومن أساتذته كذلك الأستاذ محمد النخلي القيرواني (ت 1924م)، "العلامة، النظّار، المفكّر المستقل، زعيم النهضة الفكرية لجامع الزيتونة" كما يصفه تلميذه ابن باديس، وكان أول شخصية علمية بالزيتونة يشهد لها بالرسوخ في العلم، والتحقيق في النظر، والسمو والاتساع في التفكير"⁶.

-
- 1 - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج 3، مصدر سابق، ص. 114.
 - 2 - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج 5، مصدر سابق، ص. 148.
 - 3 - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج 3، مصدر سابق، ص. 231.
 - 4 - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج 3، مصدر سابق، ص. 231.
 - 5 - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج 3، مصدر سابق، ص. 271-272.
 - 6 - المصدر نفسه، ص. 271.

وكما كان يُشهد له بالرسوخ في العلم في الزيتونة، كان يُرمى "بالضلال والبدعة وبما هو أكثر من ذلك" من قبل بعض العلماء المحافظين بالزيتونة، لأنه كان يتبنى آراء الإمام محمد عبده في الإصلاح، ويشتر بها وينشرها في أوساط الطلبة الزيتونيين.

وكانت هذه التهمة كافية لصرف كثير من الطلبة عن حضور دروسه، والإفادة من علومه، خوفا على أنفسهم من التلبس بالبدعة التي يدعو إليها، والوقوع في الضلال الذي ينشره، ومن هؤلاء الطلبة الذين صُرفوا عنه ابن باديس، كما يشهد هو نفسه بذلك حين يقول: "وكان هذا [الانتماء بالبدعة والضلال] مما استطاع به الوسط الزيتوني أن يصرفني عنهما [محمد النخلي والطاهر بن عاشور]، وما تحلّصت من تلك البيئة الجامدة واتصلت بما حتى حصّلت على شهادة العالمية، ووجدت لنفسي الاختيار"1.

وقد درس عليه ابن باديس علم التفسير، واستفاد كثيرا من التوجيهات المنهجية التي كان يقدمها له في حسن التعامل مع النص القرآني و مصادر التفسير وآراء المفسرين.

ويعترف ابن باديس لهؤلاء الأساتذة الذين ذكرنا، ولغيرهم من أساتذته ممن درسوه في مراحل سابقة بالفضل الكبير في تكوينه العلمي والخلقي، ويجعلهم في المرتبة الثانية من حيث أثرهم في شخصيته بعد والده، وذلك حين قال: " ثم لمشائخي الذين علموني العلم، وخطوا لي مناهج العمل في الحياة، ولم ييخلوا استعدادي حقه"2.

ويخصّ ابن باديس اثنين من أساتذته يجعل لهما الفضل الأكبر في تكوين شخصيته العلمية والعملية، تجاوزت علاقته بهما حدّ العلاقة المعهودة بين الأساتذة والطلاب في المدارس والجامعات التي لا تتعدى في الغالب إلقاء الدروس والمحاضرات، فهما أستاذان كما يشهد ابن باديس بتبنيهما علميّا، ولم يبخلا عليه بالتوجيهات اللازمة لتنمية ما لديه من استعدادات علمية وعملية، وقدّما له من النصائح ما وجد ثمرة بعد ذلك في حياته، ويذكر ابن باديس فضلها عليه، مشيرا إلى الآثار التي كانت في حياته نتيجة توجيههما ورعايتهما فيقول: " وأذكر منهم رجلين كان لهما الأثر البالغ في تربيتي وفي حياتي العلمية، وهما من مشائخي اللذان تجاوزا بي حدّ التعليم المعهود لأمثالي - إلى التربية والثقيف والأخذ باليد إلى الغايات المثلى في الحياة.

1 - المصدر نفسه ، ص.271.

2 - عبد الحميد بن باديس: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، مصدر سابق، ص.475.

أحد الرجلين الشيخ حمدان الونيسي القسنطيني، نزيل المدينة المنورة ودفينها، وثانيهما الشيخ محمد النخلي المدرس بجامع الزيتونة المعمور رحمهما الله¹.

ثالثاً- أسفار ابن باديس

يمكن تصنيف أسفار ابن باديس إلى قسمين: أسفار خارجية قصد فيها بلدانا عربية وأجنبية، وأسفار أخرى كثيرة داخل وطنه الجزائر.

ومن القسم الأول من الأسفار نذكر أن ابن باديس سافر لأول مرة في حياته إلى تونس للدراسة بجامع الزيتونة، وفي سنة 1913م عاد من تونس إلى مسقط رأسه بمدينة قسنطينة، فاحتفلت به أسرته احتفالا كبيرا، وبدأ في إلقاء الدروس في الجامع الكبير من كتاب الشفاء للقاضي عياض، لكن إمام المسجد لم يرقه الأمر فعمل كل ما في وسعه ليتوقف ابن باديس عن التدريس، وقد نجح في ذلك، وعزم ابن باديس بعد هذا الحادث على السفر في رحلة طويلة إلى بيت الله الحرام وزيارة أقطار المشرق العربي، فأتجه في سنة 1913 إلى بيت الله الحرام، ومكث في المدينة المنورة ثلاثة أشهر ألقى فيها دروسا في المسجد النبوي، والتقى بعلماء من كافة أنحاء العالم الإسلامي، كما التقى أستاذه حمدان لونيبي، الذي هاجر إلى المدينة سنة 1908م، كما التقى لأول مرة بالشيخ محمد البشير الإبراهيمي* الذي هاجر إلى المدينة سنة 1911م، فكان هذا اللقاء نقطة انطلاق لصداقة متينة ربطت بينهما، وقد عرض الشيخ الونيسي على تلميذه الإقامة الدائمة بالحجاز، لكن الشيخ حسين أحمد الهندي* وهو

1 - عبد الحميد بن باديس: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، مصدر سابق، ص.475.

* ولد سنة 1889م في قرية أولاد ابراهيم بالقرب من مدينة سطيف، وتلقى تعليمه على والده وعلى عمه، ثم سافر إلى الحجاز سنة 1911م ليكمل تعليمه بالمدينة المنورة.

وبعد عودته إلى الجزائر سنة 1920 ساهم مع الشيخ ابن باديس في تأسيس جمعية العملاء المسلمين الجزائريين، وانتخب نائبا لرئيسها، ثم رئيسا لها بعد وفاة الشيخ ابن باديس، فوسع من دائرة أعمالها، واستمر رئيسا لها إلى توقفت عن العمل سنة 1956م، وتوفي في 19 مايو 1965م. انظر تفاصيل عن ترجمته في: محمد علي دبوز: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج2، ص ص.104-122.

* هو حسين أحمد بن حبيب الله بن بير علي الحنفي الفيض أبادي الشيخ العلامة الصالح المحدث المشهور

بالمديني، ولد رحمه الله في شوال سنة 1296 هـ في بانكروم من أعمال اناوء بالهند.

تلقى بعض المبادئ من العلوم ببلدته، ثم سافر سنة 1309 هـ إلى المدرسة العربية بديوبند ومكث بها سبع سنين

وأخذ علوم الحديث والفقه على يد شيخ الهند العلامة محمود حسن الديوبندي.

وفي عام 1316 هـ هاجر مع والده وأسرتهم إلى المدينة المنورة، واشتغل بأخذ العلم على بعض علمائها، ثم سافر إلى

مكة المكرمة والتقى بالشيخ العلامة امداد الله الكنكوهي واستفاد منه كثيراً وصحبه.

من علماء الحديث أشار عليه بالرجوع إلى بلده لحاجته إلى العلماء من أبنائه، فعمل ابن باديس بنصيحته وعزم على العودة إلى بلده¹..

وقد لازم ابن باديس في الفترة التي أقامها في المدينة المنورة صديقه الإبراهيمي ملازمة تامة حيث كانا يقضيان وقتهما في دراسة أوضاع الجزائر، ويفكران في الوسائل التي تنهض الجزائر من كبوتها، يقول البشير الإبراهيمي عن هذه اللقاءات: "كنا نؤدي صلاة فريضة العشاء الأخيرة كل ليلة في المسجد النبوي، ونخرج إلى منزلي فنسمر مع الشيخ ابن باديس منفردين إلى آخر الليل حين يفتح المسجد فندخل مع أول داخل لصلاة الصبح، ثم نفرق إلى الليلة الثانية إلى نهاية الثلاثة أشهر التي أقامها الشيخ بالمدينة المنورة، كانت هذه الأسفار المتواصلة كلّها تديرا للوسائل التي تنهض بها الجزائر، ووضع البرامج المفصلة لتلك النهضات الشاملة التي كانت كلّها صورا ذهنية تتراءى في مخيلتنا، وصحبها من حسن النية وتوفيق الله ما حقّقها في الخارج بعد بضع عشرة سنة"².

ولا شك أن هذه المدّة التي مكثها ابن باديس في المدينة المنورة مكّنته من التعرف عن طريق المعاينة والاتصال المباشر على الحركة الوهابية ورجالها ومبادئها، وملاحظة بعض الآثار العملية التي تركتها هذه الحركة في البيئة الحجازية، وقد أشار إلى بعض هذه الآثار فيما كتبه في جريدة النجاح عن هذه الحركة³.

وقد تصدر للتدريس بالمسجد النبوي الشريف وكان من أشهر مدرسيه وأعلمهم وحلقاته لا تحصى، وتلاميذه أكثر، وكان يدرس التفسير والحديث والفقه.

يقول الشيخ البشير الإبراهيمي عن الشيخ حسين أحمد والشيخ محمد العزيز الوزير التونسي: "وأشهد أي لم أرَ لهذين الشيخين نظير في فصاحة التعبير، ودقة الملاحظة، والغوص عن المعاني، واستنارة الفكر، والتوضيح للغوامض، والتقريب للمعاني الصعبة..."

ومن تلاميذه من أعلام الإصلاح: بالجزائر الشيخ البشير الإبراهيمي، والشيخ عبد الحميد بن باديس، والشيخ الطيّب العقبي.

توفي رحمه سنة 1377 هـ . أنس يعقوب كتي: أعلام من أرض النبوة، ج1، ص ص.47-49.

1 - تركي رابح: الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، مرجع سابق، ص.171-172.

2 - محمد البشير الإبراهيمي: مجلة مجمع اللغة العربية، ع 21، سنة 1964، القاهرة، ص. 141.

3 - المصدر نفسه، ص. 26.

وفي أثناء عودة ابن باديس من الحجاز مرّ بعدة أقطار عربية، فزار سوريا ولبنان ومصر واجتمع برجال الفكر والعلم والأدب فيها، وزار الأزهر الشريف ووقف على أساليب الدراسة فيه، واتّصل بالشيخ محمد بخيت المطيعي حاملا إليه كتاب توصية من شيخه الونيسي، فاستلم منه الكتاب وقال معلّقا: "ذاك رجل عظيم"، وكتب لابن باديس إجازة بخطّ يده¹.

وقد ذكر ابن باديس ميزتين للشيخ بخيت المطيعي تميّز بهما عن كثير من علماء الأزهر الشريف، ميزة علمية حيث "كان ممتازا بين كبراء الأزهر بتحقيق الأصلين: علم الكلام وأصول الفقه، وكان بسعة علمه وقوة إدراكه وتميزه، يرفع الخلاف في كثير من أمّهات المسائل ويبيّن أنّ الخلاف فيها لفظي، وأنّ أصل المسألة محلّ اتفاق"²، وميزة تتعلق بموقفه من الإصلاح الديني الذي نادى به الإمام محمد عبده، حيث "كان زميلا للشيخ محمد عبده في الطلب، وهو الوحيد من شيوخ الأزهر الذي كان يساميه وينال معه حظّا من الشهرة خارج مصر، وكان . على معارضته له في نواح . يؤيده في إنكار البدع والمحدثات في الدين"³.

ومن أسفاره إلى الخارج سفره في وفد المؤتمر الإسلامي إلى باريس لتقديم مطالب الأمة الجزائرية إلى الحكومة الفرنسية سنة 1936م، وإن كان الهدف من هذا السفر سياسيا، لكن لا شك في أنّه مكن ابن باديس من الاتصال بالضفة الأخرى للبحر المتوسط، والنزول بالعاصمة الفرنسية باريس التي أعجب بمظاهر الحضارة فيها بعض المفكرين والمصلحين من أبناء العالم الإسلامي، كرفاعة الطهطاوي ومحمد عبده، وإن كان ابن باديس فيما كتبه عن هذه الرحلة لم يسجّل إلاّ ملاحظات قليلة تتعلّق بمسيرة الرحلة في الباخرة والحوارات التي كانت بين أعضاء وفد المؤتمر من العلماء، والتي كانت تدور حول أجماد المسلمين أيام قوتهم، وكيف هاجت النفوس حين ذكرت الأندلس التي ضاعت من المسلمين⁴.

1 - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج 3، مصدر سابق، ص. 101.

2 - المصدر نفسه، ص. 100.

3 - المصدر نفسه، ص. 101.

4 - المصدر نفسه، ص. 308.

بالإضافة إلى هذه الأسفار التي قادت ابن باديس إلى خارج الجزائر، زار ابن باديس بعد ذلك في إطاره عمله الإصلاحي مدنا جزائرية كثيرة في الشمال والجنوب، في الشرق والغرب، وقد مكنته هذه الأسفار من أخذ صورة مباشرة عن واقع المجتمع الجزائري في جوانبه المختلفة¹.

رابعاً- الشخصيات التي تأثر بها ابن باديس

يؤكد ابن باديس أن الفضل في تكوينه الإصلاحي يرجع أولاً وقبل كل شيء إلى القرآن الكريم فيقول: "ثمّ الفضل أولاً وأخيراً لله ولكتابه الذي هدانا لفهمه والتفقه في أسراره والتأدّب بآدابه، وإنّ القرآن الذي كوّن رجال السلف لا يكثر عليه أن يكون رجالاً في الخلف لو أحسن فهمه وتدبره وحملت الأنفس على منهاجه"²، وأنّ أصول فكره الإصلاحي تعود إلى نصوص القرآن والسنة النبوية وعمل السلف الصالح وذلك حين يقول: "من الواجب على كلّ مسلم في كلّ مكان وزمان أن يعتقد عقداً يتشربه قلبه وتسكن له نفسه، وينشرح له صدره، ويلهج به لسانه، وتبني عليه أعماله، أنّ دين الله تعالى من عقائد الإيمان وقواعد الإسلام وطرائق الإحسان، إنما هو من القرآن والسنة الثابتة الصحيحة وعمل السلف الصالح من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين، وأنّ كلّ ما خرج عن هذه الأصول ولم يحظ لديها بالقبول قولاً كان أو عملاً أو عقداً أو احتمالاً فإنّه باطل من أصله، مردود على صاحبه كائناً من كان في كلّ زمان ومكان"³.

كما يؤكد كذلك في مناسبات عديدة أن العودة إلى هذه الأصول التي شكّلت فكره الإصلاحي ما كانت لتتحقق له إلا بفضل مجموعة كبيرة من الشخصيات العلمية والإصلاحية التي انطلقت في فكرها الإصلاحي من هذه الأصول، وتركت تراثاً غنيا استفاد منه في بلورة فكره الإصلاحي. ويمكن أن نذكر من هذه الشخصيات التي أثرت في تكوين ابن باديس الشخصيات الآتية:

1 - انظر تفاصيل عن هذه الرحلات في: عبد الحميد بن باديس، آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج4 ص. 221-304، و محمد بن قينة، رحلات المصلح الجزائري المفكر ابن باديس داخل الجزائر وخارجها، مجلة الموافقات، المعهد الوطني العالي لأصول الدين مولود قاسم نايت بلقاسم الجزائر، العدد السادس، السنة السادسة، 1418هـ/ 1997-1998م، ص ص. 614 - 635.

2 - عبد الحميد بن باديس: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، مصدر سابق، ص. 476.

3 - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج3، مصدر سابق، ص. 22.

أبو بكر بن العربي (468 - 543هـ)*

وهو من العلماء الذين تمكّنوا من تجاوز الفروع في تحصيلهم، إلى الارتباط بأصول علوم الشريعة من كتاب وسنة، يقول فيه ابن باديس: "أما ابن العربي فهو حكيم إسلامي، وفقه قرآني، وعالم سني- حقيقي - لا يبني أنظاره إلاّ على أصول الإسلام ودلائل الكتاب والسنة"¹.

ويرجع اهتمام ابن باديس بكتبه، وتأثره بفكره إلى هذه النقطة الأساسية التي ميّزته عن كثير من العلماء الذين عاصروه، أو جاءوا بعده، حيث يكتفون بتحصيل علوم الشريعة من أقوال الأئمة دون الأصول التي بنيت عليها.

كما يرجع اهتمام ابن باديس بابن العربي إلى أنّه يعتبره نموذج العالم المسلم الذي استكمل شروط القيام بمهمّته، من شروط علمية وأخلاقية وعملية، يشير إليها ابن باديس حين ينقل قول ابن فرحون في الديباج فيه: "وقدم بلده إشبيلية بعلم كثير، لم يأت به أحد قبله ممّن كانت له رحلة إلى المشرق، وكان من أهل التفنّن في العلوم والاستبحار فيها والجمع لها، متقدّما في المعارف كلّها، متكّما في أنواعها، ناقدًا في جميعها، حريصًا على أدائها ونشرها، ثاقب الذهن في تمييز الصواب منها، ويجمع إلى ذلك كلّ آداب الأخلاق مع حسن المعاشرة وكثرة الاحتمال وكرم النفس وحسن العهد وثبات الود"².

ونختم حديثنا عن شخصية ابن العربي بالعبارة الجامعة التي وصفه ابن باديس بها وهي قوله فيه: "خزانة العلم وقطب المغرب"³.

* هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الإشبيلي المالكي كان فقيهاً متبحراً بلغ رتبة الاجتهاد، ولد 468 هـ في إشبيلية وتوفي 543 هـ، ومن أهم مصنفاته أحكام القرآن، عارضة الأحوذى في شرح صحيح الترمذي، العواصم من القواصم، الإنصاف في مسائل الخلاف، القبس في شرح الموطأ، المحصول، وغيرها. خير الدين الزركلي: الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء والمستعربين والمستشرقين، مج6، ط5، دار العلم للملايين، بيروت (لبنان)، 1980م، ص. 230.

1 - عبد الحميد بن باديس: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، مصدر سابق، ص. 290.

2 - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج3، مصدر سابق، ص. 130.

3 - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج3، مصدر سابق، ص. 129.

أبو إسحاق الشاطبي (ت.790هـ / 1388م)*

يشهد ابن باديس للإمام الشاطبي بأنه من العلماء الذين جمعوا في تكوينهم العلمي بين المنهج العقلي والمنهج النقلي، فيقول عنه: " وبين أيدينا كتاب "الاعتصام" لمؤلفه علامة المعقول والمنقول أبي إسحاق الشاطبي المالكي المتوفى سنة 790"1.

وقد تأثر ابن باديس بفكر الشاطبي من خلال كتابيه "الموافقات" و"الاعتصام"، حيث كان تعرّف على الكتاب الأول ضمن مقررات الدراسة بجامع الزيتونة، وهو يقدّم لدارسه منهجا في كيفية التعامل مع مصادر التشريع الإسلامي، مع تركيز على وجوب فهم أحكام الشريعة المختلفة في إطار المقاصد التي شرعت لتحقيقها في حياة الإنسان فردا ومجتمعاً.

وقد استفاد منه ابن باديس هذا المنهج في التعامل مع نصوص القرآن والسنة، ومصادر التشريع الأخرى، وأكسب فكره بعدا مقاصديا يتضح لنا من خلال كثير من المسائل الفقهية التي بحثها والفتاوى التي أصدرها، ويمكن أن نتمثل لذلك بفتواه في موضوع المكس، ردّا على من قال بتحريم مكس الأسواق انطلاقاً من النصوص دون مراعاة للتغيرات التي حدثت في حياة الناس².

* هو إبراهيم بن موسى بن محمد أبو إسحاق اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، وكنيته التي عرف بها أبو إسحاق.

والأظهر أنه ولد بغرناطة، و نشأ و ترعرع بها، وتلقى تعليمه على أيدي علمائها، توفي يوم **الثلاثاء** من شهر شعبان سنة 790 هجري .

طبع للإمام الشاطبي العديد من الكتب التي لاقت القبول عند أهل العلم و هي:

كتاب الموافقات في أصول الشريعة وهو من أعظم ما ألف في علم المقاصد، كتاب الإفادات و الإنشادات، كتاب الإعتصام في أهل البدع و الضلالات. خير الدين الزركلي: الأعلام، مج1، ص. 75، وانظر ترجمة مفصلة له وتعريفا بفكره المقاصدي في: أحمد الريسوني: نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، ط4، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن (فرجينيا)، 1995م، ص. 87- 114.

1 - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج5، مصدر سابق، ص.104.

2 - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج3، مصدر سابق، ص. 260- 261، وعمار طالي: ابن باديس حياته وآثاره، ج4، دار اليقظة العربية، بيروت (لبنان)، 1388هـ/ 1968م، ص.ص. 415-414.

كما نلاحظ هذا البعد المقاصدي في فتواه المتعلقة بستر المرأة لوجهها، حيث يؤكد على ضرورة مراعاة الزمان والمكان في إصدار حكم شرعي في هذا الموضوع وعدم الاكتفاء بالنظر في النصوص دون اعتبار لمقاصدها¹.

أما الكتاب الثاني الذي اهتم به ابن باديس كثيرا، وترك أثرا في فكره الإصلاحية، هو كتاب "الاعتصام"، الذي يمثل الجهود العملية للإمام الشاطبي في مقاومة البدع التي انتشرت في عصره. ويقتبس ابن باديس منه نصوصا وينشرها في الشهاب للدلالة على أنّ إنكار المصلحين لبدع المتصوفة وغيرهم ليس بدعة في التاريخ، بل هو امتداد لجهود علماء متقدمين دعوا إلى السنة وحذروا من البدع.

عبد الرحمن بن خلدون (732 - 808 هـ)*

إنّ المطلع على آثار ابن باديس من جهة ومقدم ابن خلدون من جهة ثانية، سوف يلحظ دون شك تأثر ابن باديس بابن خلدون في كثير من آرائه التعليمية والتربوية والاجتماعية، وذلك من خلال دراسته لمقدمته وتدريسها لطلبته².

ويمكن أن نذكر هنا على سبيل التمثيل لا الحصر بعض الآراء التي استفادها ابن باديس من كتاب المقدمة، في المجال التعليمي وفي المجال الاجتماعي، ففي المجال التعليمي نجد ابن باديس في الاقتراحات التي قدمها لإصلاح التعليم بجامع الزيتونة، يؤكّد أنه لا يكفي في تعليم اللغة العربية للطلبة التركيز على

1 - عبد الحميد بن باديس: مجالس التذكير من حديث البشير النذير، مصدر سابق، ص 172-173.

* - ولد "ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خالد (خلدون) الحضرمي" بتونس سنة 732 هـ / 1332 م، ونشأ في بيت علم ومجد عريق، فحفظ القرآن في وقت مبكر من طفولته، وكان أبوه هو معلمه الأول، كما درس على مشاهير علماء عصره القراءات وعلوم التفسير والحديث والفقهاء المالكي، والأصول والتوحيد، كما درس علوم اللغة من نحو وصرف وبلاغة وأدب، ودرس كذلك علوم المنطق والفلسفة والطبيعية والرياضيات، وكان في جميع تلك العلوم مثار إعجاب أساتذته وشيوخه.

قام بوظائف كثيرة منها التدريس والقضاء ومستشارا للأمرء، ومن أعظم أعماله العلمية كتابه "المقدمة"، الذي أسس به علم العمران أو علم الاجتماع، توفي بالقاهرة سنة 808 هـ / 1406 م. درويش الجويدي: ترجمة ابن خلدون، المقدمة، مرجع سابق، ص 7-8.

2 - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج 4، مصدر سابق، ص 100.

قواعدها، وهو رأي استفاده من قول ابن خلدون في مقدّمته: "فإنّ العلم بقوانين الإعراب إنّما هو بكيفية العمل (وليس هو نفس العمل)"¹.

أما في المجال الاجتماعي فنقرأ لابن باديس قوله في بيان العلاقة الاجتماعية بين أهل البادية وأهل المدينة: " من المعروف في تاريخ الأمم والأجيال أنّ النَّاس في كلّ جيل وكلّ أمة يختلفون في درجات المدنيّة والرقّيّ، فتوجد فيهم الطبقات المنحطّة، وأكثر ما تكون في دواخل البادية، وتوجد فيهم الطبقة الراقية، وأكثر ما تكون في المدن والقرى.

والبادية - كما هي مصدر غذاء الحاضرة المادي - كذلك هي مصدر غذائها الاجتماعي والفكري، فلا تزال البادية تدفع بالأفراد والجموع منها الأقوياء الأبدان المتان الأخلاق السالمي الفطر، إلى الحاضرة فيجدّدون فيها ما أضعفته المدنية من أبدان، وما أفسدته من أخلاق، وما شوّهته من فطرة، ولا تزال الحاضرة - في مقابل ذلك - تبعث بأشعة علومها وتهذيبها إلى البادية فتنيّرها وتستحثّ أهلها على اللّحاق بطبقات الراقين المتمدنين، هكذا كان الحال ولا يزال بينهما دواليك"².

وهي قاعدة استخلصها ابن باديس من بعض القواعد التي أوردها ابن خلدون في مقدّمته، مثل قوله: " أن البادية أصل العمران والأمصار مدد لها" و " أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر"³.

1 - عبد الرحمان بن محمد بن خلدون: مقدمة ابن خلدون، تحقيق درويش الحويدي، ط1، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، 1415هـ/ 1995م، ص.560.

2 - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج5، مصدر سابق، ص. 212.

3 - عبد الرحمان بن محمد بن خلدون، المرجع السابق، ص. 116.

الأمير خالد بن الهاشمي الجزائري (1875-1936م)*

من الشخصيات السياسية التي كان لها أثر في ابن باديس الأمير خالد الجزائري الذي قال فيه ابن باديس: " بطل من أبطال الإسلام، ورجل من رجال العرب، وفذ من أفذاذ الجزائر الذين ندر أن تنجب البلاد أمثالهم إلا بعد مرور العقود العديدة من السنين"¹.

ويذكر له ابن باديس مجموعة من الصفات القيادية التي جعلته يحتلّ مكانة كبيرة في نفوس الجزائريين و في الساحة السياسية، يقول ابن باديس: " كان رحمه الله وطيب ثراه مسلما صادقا متين الإيمان، عفيف النفس طاهر الذيل، كريما جوادا، شهما أيبّا، صريحا إلى أقصى درجات الصراحة، صلبا في الحق لا يلين...

وكان فصيحاً عذب المنطق، يخطب بالعربية كأحسن العرب، ويخطب بالفرنسية كأحسن الفرنسيين، له قلم في اللغتين سيّال بليغ، وله قوة إقناع غريبة، وله حسن قبول عند جميع الناس، فما جالس أحداً أو تحدّث إلى أحد إلاّ أرغمه على حبه واحترامه ولو كان من أكبر حاسديه وأعدائه"².

إلاّ أن ابن باديس يرجع بعض أسباب فشله في عمله السياسي إلى افتقاده لبعض الصفات التي لا يمكن النجاح من دونها في ميدان السياسة، منها المرونة السياسية، والقدرة على التنظيم، فالأمير خالد كما يؤكد ابن باديس: " لا يعترف بالمرونة السياسية، ويحسن قيادة الجموع ولا يحسن قيادة الأفراد،

* ولد خالد الهاشمي بن عبد القادر (الأمير) يوم 20 فيفري 1875م بدمشق، وتلقّى تعليمه الأول بها، و درس اللغتين العربية و الفرنسية، واصل دراسته الثانوية بباريس بثانوية لويس الأكبر، وبعد أن عادت عائلته إلى الجزائر سنة 1892م انضم إلى الكلية الحربية الفرنسية المعروفة بسان سير cyr - saint التي تخرّج منها عام 1897م شارك في حملات عسكرية بالمغرب سنة 1907 برتبة ملازم أول قبل أن يرقى إلى نقيب سنة 1908م، كما في الحرب العالمية الثانية كضابط صبا يحي، ثم انسحب من الجيش الفرنسي سنة 1919 واستقر بالجزائر. أسس الأمير خالد جريدة الإقدام سنة 1920 للتعبير عن أفكاره والدفاع عن فكرة المساواة بين الجزائريين و الفرنسيين في الحقوق السياسية ، ونشط الأمير في الميدان السياسي بكتابة العرائض، وترشح للانتخابات البلدية وصار عضوا بالمجلس البلدي للجزائر العاصمة، وأنشأ جمعية الأخوة الجزائرية. وخوفا من التأثير المتزايد لعمله السياسي هذا النشاط المكثف حكمت عليه للسلطات الفرنسية جعلت الحكومة الفرنسية بالنفي خالد إلى خارج الجزائر في شهر جويلية 1923م، لكن نفيه لم يمه نشاطه السياسي فقد شارك في مؤتمر باريس للدفاع عن حقوق الإنسان، ورغم محاولاته المتكررة العودة إلى الجزائر إلاّ أن السلطات الفرنسية منعت من ذلك إلى غاية وفاته بدمشق بتاريخ 09 جانفي 1936م. انظر ترجمته في. عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج3، ص. 102-110.

1 - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج3، مصدر سابق، ص. 102.

2 - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج3، مصدر سابق، ص. 109.

وكان ذلك من أهم أسباب فشله، وكانت صرامته وصلابته سببا في نجاح المستعمرين لتأليب عصبه من بني جلدته ضده¹.

ويؤكد ابن باديس أنّ كل من يعمل في الميدان السياسي في الجزائر لم يتجاوز في مطالبه التي يناضل لأجلها المطالب التي قدّمها الأمير خالد سنة 1925م إلى رئيس وزراء فرنسا، وربما كانت مطالب الأمير آنذاك أوسع من مطالب بعض الهيئات السياسية بعده².

والمتّبع للمطالب السياسية التي كان ابن باديس يرفعها باسمه وباسم الجمعية في مناسبات كثيرة لا يجدها تخرج عن دائرة المطالب التي طالب بها الأمير خالد، ممّا يدل على أنّه يتخذ من تجربته السياسية إطارا مرجعيا له في عمله السياسي.

الشيخ طاهر الجزائري (1263 هـ . 1338 هـ) (1844م . 1920م)*: يقول عنه ابن باديس " شيخه " رغم أنه لم يتلمذ عليه، ويشير إلى اتصاله بفكره من خلال كتبه ومقالاته منذ المراحل الأولى من تعليمه، ويرجع إليه الفضل في الاتجاه الفكري الذي سار عليه بعد ذلك، يقول ابن باديس: " هو الذي ربّي عقلي، وهو الذي حبّب إليّ هذا الاتجاه الفكريّ منذ كنت طفلا إلى أن صرت رجلا"³.

1 - المصدر نفسه ، ص. 109.

2 - المصدر نفسه ، ص. 108.

* هو طاهر بن صالح بن أحمد بن موهوب السمعوني الجزائري، هاجر والده الشيخ صالح من الجزائر إلى دمشق في سنة 1263 هـ 1844م، وكان من بيت علم وشرف معروف.

درس الشيخ طاهر بالمدرسة الجقمقية بدمشق مبادئ العلوم، كما درس العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية والتاريخية والأثرية عن علماء الأتراك، وتعلم لغات كثيرة منها الفرنسية والسريانية والعبرانية والحبشية والقبطية البربرية لغة أهله الأصلية، وأتقن اللغات العربية والفارسية والتركية.

كانت حياته مليئة بالأعمال العلمية، حيث جمع بين التعليم والتأليف في فنون مختلفة، ومن مؤلفاته. الجواهر الكلامية في العقائد الإسلامية، منية الأذكياء في قصص الأنبياء، مد الراحة إلى أخذ المساحة، مدخل الطلاب إلى فن الحساب، الفوائد الجسماني في معرفة ضواحي الأجسام، ورسالة في النحو وأخرى في البديع وثلاثة في البيان ورابعة في العروض، وشرح ديوان خطب ابن نباتة، ومختصر البيان والتبيين للحافظ، و توفي رحمه الله يوم 14 ربيع الثاني سنة 1338 هـ و 5 كانون الثاني سنة 1920م.

انظر ترجمة مفصلة لشخصيته وأعماله في: عمار طالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج4، ص: 152- 193، وعبد العزيز العميد: الشيخ الطاهر الجزائري ودوره الإصلاحية في المشرق العربي بلاد الشام نموذجا، رسالة ماجستير بقسم التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة.

3 - عبد الحميد بن باديس، آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج 3، ص. 113.

ويذكر له ابن باديس مجموعة من الصفات تميّزت بها شخصية، والأكيد أنه كان لها أثرها في شخصية تلميذه ابن باديس، منها " كمال العقل وسعة الاطلاع التي لا حدّ لها"، والجمع بين العلم والعمل، ومنها عدم الاغترار بزخارف الحياة الدنيا فهو كما يصفه: " العالم العامل الذي كانت الدنيا لا تساوي عنده جناح بعوضة"، والمجاهد " لأجل الحرية وفي سبيل المعارف، وإحياء علوم السلف، وإعادة مجد العروبة والإسلام"، ليس له في الحياة " أمنية إلا أن يرى عز الإسلام يعود كما كان في أيام القوة والعدل والعلم وتقوى الله عز وجل"1.

ويعتبر ابن باديس الجهود التي بذلها في ميدان الإصلاح فكرا وعملا، ثمرة من ثمار هذا المربي العظيم فيه فيقول: " أنا وكلّ ما نشرته لسنا إلا قطرة من بحر الخير الذي كان يتدفق من صدر هذا العالم العامل"2.

الإمام محمد رشيد رضا (1282-1354هـ) (1865-1935م)*: واخترنا أن يكون حديثنا عن أثر الإمام رشيد رضا في ابن باديس لا عن أثر الإمام محمد عبده، رغم أنّ رشيد رضا مدين في فكره الإصلاحية لأستاذه عبده، لما لاحظناه في آثار ابن باديس من تركيز كبير على شخصية رشيد رضا، واعتبار الجهود التي بذلها هي أعظم الأسباب لانتشار الفكر الإصلاحية لمدرسة الأفغاني وعبده، ومما يدلّ على ذلك قول ابن باديس فيه: "كان الساعد الأيمن والعضد الأشدّ للأستاذ الإمام في جميع ما قام به ، كما كان الترجمان الصادق عن أفكاره والمدرّه*"

1 - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج3، مصدر سابق، ص.113.

2 - المصدر نفسه ، ص.113.

* - ولد رشيد رضا بقرية " قلمون" إحدى قرى نواحي " طرابلس" بالشام سنة 1282هـ/1865م، درس بها، ثم بطرابلس، ثم بيروت، و كان شديد الاهتمام بالأسانيد في المسائل الدينية والتاريخية، أثر فيه في المرحلة من حياته كتاب "إحياء علوم الدين" فمال إلى الزهد، والتزم الطريقة النقشبندية، ثم تأثر بالفكر الإصلاحية للأفغاني ومحمد عبده، وأصبحت له نظرة جديدة للإصلاح، فاختار الهجرة إلى مصر ليتلمذ على الإمام عبده ويكون ساعده الأيمن في الإصلاح.

ومع إصداره لمجلة المنار، كانت له مؤلفات منها. تفسير المنار، تاريخ الأستاذ الإمام، الوحي المحمدي، شبهات النصارى وحجج الإسلام، وعقيدة الصلب والفاء، كما أشرف على تحقيق على العديد من الكتب التراثية مثل . تفسير ابن كثير، والعلم الشامخ في إثبات الحق على الآباء والمشايخ للمقبلي.

توفي رحمه الله في حادث سيارة في 23 جمادى 1365هـ/ 25 أبريل 1935م. انظر ترجمة مفصلة لحياته وأعماله في: محمد عمارة: من أعلام الإحياء الإسلامي، ص. 21- 61، و عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج3، ص ص. 82-96، وعمار طالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج4، ص.ص. 194 . 209.

* الشديدي في رعاية الأمور، الحريص في القيام بها.

الصَّمصام* في الدِّفاع عنه، واستمرَّ السيّد على وفائه للأستاذ الإمام بعد وفاته كما كان له في حياته، وما عرّف المصريّين وغير المصريّين قَدْر الأستاذ الإمام وحفظ عليهم أمانته وخلّد لهم آثاره إلا السيّد رشيد"1.

بل إن ابن باديس يرى أنّ رشيد رضا فاق أستاذه عبده في علوم مختلفة، وكان له أثره الخاص المتميّز على الفكر الإصلاحى في العالم الإسلامى، قال ابن باديس شاهداً بذلك: "وقد فاق أستاذه في نواح عديدة من العلم... [وكان له] أثره الخاص في الدّين والعلم والإصلاح"2.

ويمكن أن نفسّر هذا التقدير الخاص من ابن باديس لرشيد رضا بأمرين اثنين، أولهما جمع رشيد رضا بين المنهج النقلى والمنهج العقلى في شخصيته العلمىة، وتميّزه عن أستاذه عبده الذى اتصف بـ"بعض الشطط العقلى"3 في بعض آرائه، وترجع هذه الميزة فيه إلى ما حصّله في المراحل الأولى من تعليمه وقبل اتصّاله بمحمد عبده من علوم السنّة، وهو ربّما ما يقصده ابن باديس بتفوقه على أستاذه في "نواح عديدة من العلم"، وكذا رسوخ قدمه في العلوم الإسلامىة والاجتماعىة وهو ما يبيّنه ابن باديس بقوله: "لقد بلغ السيّد رشيد رضا من الفقه الدّينى، والتمكّن من علوم الكتاب والسنّة والخبرة بأحوال الزمان منزلة ما نخال أنّها تتاح لأحد من بعده إلاّ في دهر طويل"4، وقوله: "لقد كان الأستاذ نسيج وحده في هذا العصر، فقها في الدين، وعلما بأسرار التشريع، وإحاطة بعلوم الكتاب والسنّة، ذا منزلة كاملة في معرفة أحوال الزمان وسير العمران والاجتماع، وكفى دليلا على ذلك ما أصدره من أجزاء التفسير وما أودعه مجلة المنار في مجلداتها التى تيّفت على الثلاثين، وما أصدره في غيرهما مثل "الوحي المحمدي" الذى كان أحبّ كتبه إليه، وإنّ ما كان يقوم به من عمل في تفسير القرآن لا تستطيع أن تقوم به من بعده إلاّ لجنة من كبار العلماء"5.

* الصَّمصام السيّد الصارم الذى لا ينثنى، ويطلق على الرجل الجريء المقدام.

1 - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج3، مصدر سابق، ص. 94.

2 - المصدر نفسه، ص. 94.

3 - عبد الحميد النجار: مشاريع الإشهاد الحضارى، مرجع سابق، ص. 90.

4 - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج3، مصدر سابق، ص. 88.

5 - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج3، مصدر سابق، ص. 82.

أما الميزة الثانية التي زادت من اهتمام ابن باديس برشيد رضا وفكره وجهوده الإصلاحية هو اتساع "آفاق أعماله إلى العالم الإسلامي كلاً"¹، بسبب جهوده الكبيرة في ميدان الصحافة، ونشاطه المتواصل في الميدان السياسي.

هذه هي أهم الشخصيات العلمية والإصلاحية المغربية والمشرقية التي كان لها أثر في شخصية ابن باديس وفكره الإصلاحي، ونختم حديثنا عن الشخصيات التي كانت لها أثر في فكر ابن باديس الإصلاحي بتسجيل هذا النص من كلام ابن باديس الذي يبيّن فيه التواصل الفكري بين هذه الشخصيات، قال الشيخ ابن باديس في سياق حديثه عن الحركة الوهابية: "إنّ الغاية التي رمى إليها ابن عبد الوهاب، وسعى إليها أتباعه، هي التي لازال يسعى إليها الأئمة المجدّدون، والعلماء المصلحون في جميع الأزمان، فلها ألف أبو بكر بن العربي العواصم من القواصم وسراج المرديدن، وألف الإمام الشاطبي الاعتصام، وألف ابن الحاج المدخل، وغيرهم من الأئمة وكتبهم كثير، وإليها يسعى حزب الإصلاح المعتدل الذي أسّسه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، ورفع لواءه الشيخ رشيد رضا في مجلة المنار"².

2- أهداف الإصلاح عند الشيخ ابن باديس

يعتبر الشيخ ابن باديس عملية تحديد الأهداف عملاً صعباً يقتضي الكثير من المعاناة الفكرية في فهم الإطار المرجعي الذي ينطلق منه المصلح في عمله الإصلاحي، كما يقتضي دراسة جيدة للواقع الذي يتحرك فيه لمعرفة مشكلاته واحتياجاته، كما يقتضي استعانة بالله تعالى ليرزق المصلح البصيرة التي ينفذ بها إلى حقائق الأمور، ويجنبه النظرة السطحية التي قد تشغله بمعالجة الأعراض والمظاهر وتبعده عن ممارسة حقيقة الإصلاح.

فإذا وفق المصلحون في تبين الغاية والهدف بشكل صحيح، فإن ذلك يسهل عليهم تنسيق الجهود لبلوغ هذه الغاية، قال الشيخ ابن باديس منبهاً إلى أهمية هذا الأمر: "إنّ أعزّ ما وصلنا إليه هو تبين الغاية وتلاقي الجهود"³.

1 - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج 3، ص. 94.

2 - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج 5، مصدر سابق، ص. 33.

3 - عبد الحميد بن باديس: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، مصدر سابق، ص. 477.

ويمكن تصنيف الأهداف التي عمل الشيخ ابن باديس على تحقيقها من خلال عمله الإصلاحية إلى أهداف كلية بعيدة، وأهداف مرحلية.

أولاً- الأهداف البعيدة

والأهداف البعيدة في نظر الشيخ ابن باديس هي ما ينبغي أن تنتهي إليه حركة الإصلاح في آخر المطاف، فإذا حققت تكون أدت واجبتها المنوط بها تجاه مجتمعا، وتؤخذ هذه الأهداف من الإطار المرجعي الذي ينطلق منه المصلح، وهي بالنسبة للشيخ ابن باديس نصوص الوحي كتابا وسنة التي كثيرا ما يستدل بها على ما تبناه من أهداف بعيدة، وكذا فكر الحركة الإصلاحية الحديثة بقيادة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا.

ومن خلال تأملنا فيما كتبه الشيخ ابن باديس تفسيراً للقرآن الكريم، وشرحا للحديث النبوي الشريف، وبيانا لفكر أعلام الحركة الإصلاحية الحديثة، يمكن أن نحدد أهدافا أربعة كان يعدها الشيخ ابن باديس أهدافا بعيدة عملت حركته الإصلاحية على الوصول بالمجتمع الجزائري إليها:

إعادة الجزائريين إلى الالتزام الصحيح بالإسلام

كان الشيخ ابن باديس يرى أن الشعب الجزائري شعب مسلم من حيث انتمائه الديني، ولكن التزامه بهذا الدين في معتقداته وتصورات، وعباداته وشعائره، وأعماله وتصرفاته، شابته كثير من الشوائب، جعلته لا يحصل من انتمائه لهذا الدين إلا على أشكال ومظاهر، لا تجعله قادرا على الإفادة مما يتضمنه هذا الدين من منهج محكم يضمن له النجاح في حياته الدنيوية والأخروية.

وسبب هذا الخلل في تدين الشعب الجزائري كما يرى الشيخ ابن باديس يرجع إلى تلقيه الإسلام وراثية عن آباءه وأجداده، من باب التقليد والمحاكاة لما كانوا عليه، وضعف معرفته بهذا الدين في مقاصده وأحكامه، معرفة تزيد من يقينه بهذا الدين واقتناعه به.

ويرى الشيخ ابن باديس أن الدين الذي ينتقل إلى الفرد والجماعة من باب التقليد والمحاكاة لا يكون له أثر واضح في سلوك الفرد والجماعة، ولا يمكن أن يلعب أي دور في تحقيق النهضة للمجتمع.

وقد سمى الشيخ ابن باديس هذا التدين إسلاما وراثيا، ودعا إلى تحقيق إسلام ذاتي مبني على معرفة سليمة بالدين، تعود إلى المصادر الأولى من قرآن وسنة، وتحسن أعمال الفكر في تحصيل هذه المعرفة، يقول الشيخ ابن باديس مبينا مفهومه للإسلام الذاتي الذي جعله هدفا لعمله الإصلاحية: "أما الإسلام الذاتي فهو إسلام من يفهم قواعد الإسلام ويدرك محاسن الإسلام في عقائده وأخلاقه وآدابه

وأحكامه وأعماله، ويتفقهه - حسب طاقته - في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ويبني ذلك كله على الفكر والنظر، فيفرق بين ما هو من الإسلام بحسنه وبرهانه، وما ليس منه بقبحه وبطلانه، فحياته حياة فكر وإيمان وعمل، ومحبه للإسلام محبة عقلية قلبية بحكم العقل والبرهان كما هي بمقتضى الشعور والوجدان.

وهذا الإسلام الذاتي هو الذي أمرنا الله به في مثل قوله تعالى: { قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَىٰ شِئْءٍ } [سبأ: 46]، فبالفكير في آيات الله السمعية وآياته الكونية وبناء الأقوال والأعمال والأحكام على الفكر، تنهض الأمم فتستثمر ما في السماوات وما في الأرض وتشيّد صروح المدنية والعمران.

إذا فنحن - المسلمون - مطالبون دينياً بأن نكون مسلمين إسلاماً ذاتياً، فبماذا نتوصل إلى هذا الواجب المفروض؟..

لذلك سبيل واحد هو التعليم، فلا يكون المسلم مسلماً حتى يتعلم الإسلام، فالمسلمون - أفراداً وجماعات - مسؤولون عن تعلم وتعليم الإسلام، للبنين والبنات، للرجال والنساء، كل بما استطاع والقليل من ذلك خيره كثير¹.

تحقيق نهضة شاملة في المجال الاقتصادي

جعل الشيخ ابن باديس من الأهداف البعيدة لحركته الإصلاحية تحقيق نهضة شاملة في واقع المجتمع الجزائري، نهضة شاملة تعيد لهذا المجتمع ريادته الحضارية التي كان يتمتع بها إلى عهد قريب من تاريخه. ومما يدل على تبني الشيخ ابن باديس لهذا الهدف في عمله الإصلاحي، ما تشير إليه بعض أقواله التي كان يبيّن فيها عن بعض أهداف حركته الإصلاحية، ومنها قوله في أبيات شعرية يؤكد فيها ضرورة استعادة الأمة المسلمة لدورها الريادي والحضاري:

" نحن الأولى عرف الزمان قد يمينا الجمّ الحسب

ومعين ذلك المجد في نسل العروبة ما نضبو

قد انتبهنا للحيا ة آخذين لها الأهب

لنحل مركزنا الذي بين الأنام لنا وجب

1 - عبد الحميد بن باديس: آثار عبد الحميد بن باديس، ج4، مصدر سابق، ص. 125.

فزيد في هذا الوري عضوا شريفا منتخب

ندعو إلى الحسنى ونو لي أهلها منا الرغب"1.

ومن هذه الأقوال أيضا قوله مشيرا إلى مضامين الدعوة التي كان يتوجه بها إلى أهل المناطق التي يزورها: " ما كنت أدعوهم في جميع مجالسي إلا إلى توحيد الله، والتفقه في الدين، والرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله، ورفع الأمية، والجد في أسباب الحياة من فلاحه وتجارة وصناعة، وإلى اعتبار الأخوة الإسلامية فوق كل مذهب وطريقة وجنس وبلد، وإلى حسن المعاملة والبعد عن الظلم والخيانة مع المسلم وغير المسلم، وإلى التزام القوانين الدولية التي لا بد منها لحفظ النظام"2.

خدمة الإنسانية

إن الواقع العالمي الذي عاصره الشيخ ابن باديس ولا حظ فيه أوضاعا كثيرة تزري بقيمة الإنسان وهو الكائن الذي كرمه الله تعالى وفضله على كثير من المخلوقات، حيث أصبح الإنسان كائنا لا تحركه إلا شهواته وأهواؤه، وأصبحت العلاقات بين الناس يحكمها مبدأ القوة لا مبدأ العدل، فوجهت الصناعة والتقنية إلى إيذاء الإنسان عوض أن تسخر لخدمته مهما كان أصله أو جنسه، واغتر الأقوياء بما امتلكوه من أسباب القوة فاستخدموها في استعباد الشعوب الضعيفة وسرقة ثرواتها وخيراتها.

رأى الشيخ ابن باديس هذا كله فافتنع بضرورة العمل على تخلص الإنسانية في عصره من هذا الضلال الذي خسرت به كرامتها، فجعل من أهم أهداف حركته الإصلاحية البعيدة تقديم نموذج صادق عن الإنسان المكرّم في دائرة الفرد وفي دائرة الجماعة والمجتمع، يكون قادرا على تسخير ما يصل إليه من منجزات معنوية ومادية في خدمة الإنسانية من حوله، ووَضَعَ منهج واضح أمام الإنسان في عصره ليستعيد به هذه الكرامة التي افتقدها في حياته الفردية والاجتماعية.

يقول الشيخ ابن باديس موضحا كون هذا الأمر هدفا بعيدا لحركته الإصلاحية: " إن خدمة الإنسانية في جميع شعوبها والحذب عليها في جميع أوطانها، واحترامها في جميع مظاهر تفكيرها ونزعاتها، هو ما نقصده ونرمي إليه، ونعمل على تربيتنا وتربية من إلينا عليه، ولكن هذه الدائرة الإنسانية الواسعة ليس

1 - عبد الحميد بن باديس: مجالس التذكير من حديث البشير النذير، مصدر سابق، ص. 309.

2 - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج 4، مصدر سابق، ص. 225.

من السهل التوصل إلى خدمتها مباشرة ونفعها دون واسطة، فوجب التفكير في الوسائل الموصلة إلى تحقيق هذه الخدمة وإيصال هذا النفع"¹.

تحقيق استقلال الجزائر عن فرنسا

وجعلنا بيان هذا الهدف في آخر حديثنا عن الأهداف البعيدة ، لأن الشيخ ابن باديس كان يرى أن الاستقلال إنما هو نتيجة تتحقق للمجتمع حين تستوفي حركة الإصلاح تحقيق مطالب أساسية أخرى سابقة وممهدة له.

وقد يعترض بعض الدارسين على جعل تحقيق الاستقلال هدفا بعيدا لعمل ابن باديس الإصلاحية، ويوردون من كلام الشيخ نفسه ما فيه دعوة للجزائريين بالالتزام بسياسة الارتباط بفرنسا والقيام بجميع الواجبات لحكومتها، ومن ذلك قوله: "حافظ على مبادئك السياسية، ولا سياسة لك إلا سياسة الارتباط بفرنسا والقيام بالواجبات اللازمة لجميع أبنائها، والسعي لنيل جميع حقوقهم، فتمسك بفرانسة العدالة والأخوة والمساواة، فإن مستقبلك مرتبط بها.

ثق بأن سياسة الصدق والصراحة والإخلاص المرتكزة على الحب والعمل والتعاون لا بد أن تظهرك أمام العالم بمظهرك الحقيقي، رغم كل الغيوم التي ينشرها حولك خصومك ومنافسوك، فتعطيك حينئذ فرنسا جميع الحقوق كما قمت لها بجميع الواجبات، وتحى حياة طيبة كجميع أبناء العالم العاملين المخلصين"².

والحقيقة أنّ سياسة الارتباط بفرنسا أو ما يطلق عليه الشيخ ابن باديس التزام الجزائريين بمقتضيات الجنسية السياسية هي مرحلة لا بد من المرور بها في نظره لتتمكن حركة الإصلاح في الجزائر من فتح الأبواب أمام المشاريع المختلفة التي تشرع فيها، سواء في المجال التعليمي أم في المجال الاجتماعي أم في المجال الاقتصادي، والهادفة إلى الرفع من مستوى الوعي عند الجزائري، وتوفير الحد الأدنى من المؤهلات فيه وفي الواقع المحيط به، بما يجعله قادرا على تحصيل استقلال وطنه عن فرنسا تحصيلًا حقيقيًا.

ومما يؤكد هذه النظرة إلى الاستقلال عند الشيخ ابن باديس مقالاته العديدة التي بين فيها مفهومه للاستقلال، وسنقف عندها بشيء من التحليل والاستخلاص عند حديثنا عن مجالات الإصلاح عند

1 - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج 4، مصدر سابق، ص.110.

2 - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج 4، مصدر سابق، ص.44.

الشيخ ابن باديس في الفصول المقبلة من الدراسة، ولكننا نورد هنا موقفاً - يوضح لنا الأمر أكثر - سجله الشيخ محمد خير الدين في مذكراته حيث ذكر أن مجموعة من الشباب المتحمّس اقترحت على الشيخ ابن باديس سنة 1933 بنادي الترقّي أن يتبنى مطلب الاستقلال، فكان ردّه عليهم: "وهل رأيتم أيها الأبناء إنساناً يقيم سقفاً دون أن يشيّد الجدران؟، فقالوا: كلا، ولا يمكن هذا، فقال لهم: إن من أراد أن يبني داره، فعليه أن يبني الأساس و يقيم الجدران أولاً، ثم يشيّد السقف على تلك الجدران، ومن أراد أن يبني شعباً، و يقيم أمة، فإنه يبدأ من الأساس لا من السقف"1.

ثانياً - الأهداف المرحلية

وسنربط هذه الأهداف المرحلية بالأهداف البعيدة التي تعد وسائل لبلوغها، فنذكر بإزاء كل هدف من الأهداف البعيدة مجموعة من الأهداف المرحلية التي كان الشيخ ابن باديس يرى أنها تمثل السبيل إلى تحقيق ذلك الهدف.

بالنسبة للهدف البعيد الأول الذي هو إعادة الجزائريين إلى الالتزام الصحيح بالإسلام ، نجد أن الشيخ ابن باديس عمل لتحقيق هذا الهدف من خلال الأهداف المرحلية الآتية:

تصحيح العقائد وتخليص الجزائريين من مظاهر الشرك

لاحظ الشيخ ابن باديس خللاً في عقائد الناس في مجتمعه وفي طريقة تفكيرهم، وأيقن أن أي إصلاح لتدين الناس لا يبدأ بإصلاح هذا الخلل في عقائدهم وطريقة تفكيرهم لن يكتب له النجاح، وقد أشار الشيخ ابن باديس إلى أولوية إصلاح هذا الجانب على غيره بقوله: " ولنبدأ من الإيمان بتطهير عقائدنا من الشرك"2، وقوله: " سلوك الإنسان في الحياة مرتبط بتفكيره ارتباطاً وثيقاً، يستقيم باستقامته ويعوج باعوجاجه، ويثمر بإثماره ويعقم بعقمه، لأن أفعاله ناشئة عن اعتقاداته، وأقواله إعراب عن تلك الاعتقادات، واعتقاداته ثمرة إدراكه الحاصل عن تفكيره ونظره"3.

التفقه في الدين بالرجوع إلى أصوله

يؤكد الشيخ ابن باديس أن من الأسباب التي أحدثت خللاً في تدين الناس بمن فيهم المتعلمين منهم، تلقيهم للدين وعلومه من غير أصوله المتمثلة أساساً في القرآن الكريم والسنة النبوية، فجعل من

1 - محمد خير الدين، مذكرات، ج1، مطبعة دحلب، الجزائر، 1985م ، ص. 348.

2 - عبد الحميد بن باديس: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، مصدر سابق، ص.166.

3 - المصدر نفسه ، ص.139.

أهداف حركته تصحيح هذا الخلل بالدعوة إلى العودة إلى هذين المصدرين في تعليم الناس للدين وتربيتهم عليه.

يشير الشيخ ابن باديس إلى هذا الهدف بوضوح حين يحدثنا عن الأمور التي كان يحرص على دعوة الناس إليها في كل منطقة يزورها فيقول: "ما كنت أدعوهم في جميع مجالسي إلا إلى توحيد الله، والتفقه في الدين، والرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله"¹.

كما ينبه إلى حضور هذا الهدف بقوة في العمل الإصلاحي للشيخ ابن باديس كثير من الأعمال التي كانت تهدف إلى إعادة هذين الأصلين لحياة الناس كمصدرين لتحصيل المعرفة الدينية.

العمل على إحياء الشعائر التعبدية في نفوس الناس وتعظيمها

مما يدركه كلّ دارس للإسلام من خلال مصادره، وكذا كلّ متتبع لدرجات التدبّن في حياة الناس قوّة وضعفا، أنّ للشعائر التعبدية دورا كبيرا في إحياء الدين في النفوس، وفي تحقيق السموّ الروحي للأفراد والجماعات.

كان هذا الأمر ممّا لا يغيب عن وعي الشيخ ابن باديس من خلال ثقافته القرآنية والحديثية، وزاده حضورا في وعيه ما لاحظته من تقصير كثير من الجزائريين في هذه الشعائر: صلاة وصوما وركاة وحجا وتلاوة للقرآن وذكر، سواء كان هذا التقصير تركا لهذه الشعائر وتفريطا فيها، أم عدم التزام بما ورد به الشرع حين القيام بها، أم أداء لها ولكن على وجوه لا تحقّق المقاصد من فرضيتها على الناس، كلّ ذلك جعل الشيخ ابن باديس يضع من الأهداف المرحلية لعمله الإصلاحي تعريف الناس بعظمة هذه الشعائر وبمقاصدها في حياتهم الفردية والاجتماعية، وتربية إرادتهم ليتمكنوا من المواظبة على القيام بها، ويلتزموا في القيام بها بما ورد به الشرع دون زيادة أو نقصان.

ومن فئات المجتمع الجزائري التي كان الشيخ ابن باديس يركّز على تعظيم هذه الشعائر في نفوس أفرادها فئة الشباب المثقف ثقافة فرنسية، التي أغراها ما حصّلته من تعليم فيه كثير من العداء للدين والاستهزاء به، وكذا ما رأت عليه عامة مجتمعا من تخلف وهوان رغم حضور بعض صور التدبّن المشوبة بكثير من الخرافة في ممارساته².

الدعوة إلى الخلق الإسلامي في الحياة الفردية والاجتماعية

1 - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج 4، مصدر سابق، ص. 225.

2 - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج 3، مصدر سابق، ص. 253-254.

إن الخلل الذي مسّ عقائد الناس وطريقة تفكيرهم، والقصور الذي ظهر في علاقتهم بالشعائر التعبدية التي شرعها الإسلام تنظيمًا لعلاقتهم برهيم وعلاقتهم ببعض، ترتب عنه فساد أصاب أخلاق الناس، كما يقرر ذلك الشيخ ابن باديس حين يدعو إلى ضرورة إصلاح يمّس الجانب الأخلاقي من حياة الناس فيقول: " ولنبدأ من الإيمان بتطهير عقائدنا من الشرك، وأخلاقنا من الفساد، وأعمالنا من المخالفات، ولنستشعر أخوة الإيمان التي تجعلنا كجسد واحد"¹.

وهدف هذا الإصلاح الأخلاقي كما يؤكد الشيخ ابن باديس هو الوصول بالناس إلى درجات عالية من الكمال الإنساني في أخلاقهم تجعل ما يصدر عنهم من سلوكات وأعمال متّسما بالعدل والرحمة والإحسان والإتقان.

ولا يمكن لمجموع هذه الأهداف أن تتحقق إلا بنجاح حركة الإصلاح في بلوغ هدفين مرحليين أساسيين هما:

تكوين نخبة متعلمة: لتقوم بواجب تعليم شعبها أحكام دينه في عقيدته وعبادته وأخلاقه، وكان هذا الهدف محل اتفاق بين الشيخ ابن باديس والشيخ البشير الإبراهيمي في لقاءتهما بالمدينة المنورة، حيث اتفقا كما يذكر الإبراهيمي على طريقة في تكوين نخبة متعلمة يكون التركيز الأكبر فيها على تربيتهم على " فكرة صحيحة ولو مع علم قليل"²، وذلك لملاحظتهما أن الذي ينقص الجزائر ليس العالم الذي يمتلك كما هائلا من المعلومات، وإنما الذي ينقصها هو متعلّم يحسن التفكير ويحمل فكرة صحيحة، وله من الفعالية ما يحقّق به النفع في مجتمعه بما حصله من علم.

ويؤكد الشيخ ابن باديس في إحدى كلماته الجامعة أنه لا طمع في نجاح حركة الإصلاح في أعمالها إذا لم توفق إلى تخريج هذه النخبة، وذلك حين يقول: " لن يصلح المسلمون حتى يصلح علماءهم، فإنما العلماء من الأمة بمثابة القلب، إذا صلح صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله، وصلاح المسلمين إنما هو بفقههم الإسلام وعملهم به، وإنما يصل إليهم هذا على يد علمائهم، فإذا كان علماءهم أهل جمود في العلم وابتداع في العمل فكذلك المسلمون يكونون، فإذا أردنا إصلاح المسلمين فلنصلح علماءهم"³.

1 - عبد الحميد بن باديس: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، مصدر سابق، ص.166.

2. محمد البشير الإبراهيمي، مجلة مجمع اللغة العربية، ع 21، سنة 1964، القاهرة، ص. 143.

3. عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج 4، مصدر سابق، ص.74.

إصلاح التعليم في مقرراته ومناهجه: لأن تكوين نخبة متعلمة على فكرة صحيحة، وإكسابها القدرات العقلية والنفسية التي تمكنها من القيام بدورها في مجتمعتها، يقتضي إصلاح وضعية التعليم في الجزائر في نظر الشيخ ابن باديس، لأن المدارس الموجودة بمناهجها ومقرراتها غير قادرة على تخريج نخبة بهذه الصفات، سواء في ذلك مدارس التعليم الديني الحر التي كانت سمة أكثر المتخرجين منها العجز عن استخدام الملكات العقلية مما أورثها الجمود في أفكارها، وجعلها غير قادرة على إصلاح ما مجتمعتها، أم مدارس التعليم الفرنسي التي كانت تخرج نخبة لها قدرة على التفكير ولكن ضمن منهج وثقافة غير ثقافة مجتمعتها.

وقد أشار الشيخ ابن باديس إلى هذا الهدف في كلمته الجامعة التي أوردنا المقطع الأول منها في حديثنا عن الهدف السابق، وتمة هذه الكلمة التي تشير إلى هذا الهدف هي قوله: "ولن يصلح العلماء إلا إذا صلح تعليمهم، فالتعليم هو الذي يطبع المتعلم بالطابع الذي يكون عليه في مستقبل حياته وما يستقبل من عمله لنفسه وغيره، فإذا أردنا أن نصلح العلماء فنصلح التعليم، ونعني بالتعليم التعليم الذي يكون به المسلم عالما من علماء الإسلام يأخذ الناس دينهم عنه ويقتدون به فيه"¹.

هذه هي أهمّ الأهداف المرحلية التي يتحقق بها الالتزام الصحيح بالإسلام كهدف بعيد في نظر الشيخ ابن باديس، أما الهدف الثاني البعيد الذي هو تحقيق النهضة الشاملة فيتحقق من خلال الأهداف المرحلية الآتية:

الإعداد العلمي الجيد لنخبة من الشباب الجزائري

حيث تكون هذه النخبة رائدة هذه النهضة في المستقبل، وهو إعداد ينبغي أن يجمع بين ترسيخ مقومات الانتماء إلى الوطن والدين وبين التمكين من معارف كونية واجتماعية لا تكون نهضة من دونها.

وقد لاحظ الشيخ ابن باديس أن المدرسة الفرنسية تزود الملتحقين بها ببعض هذه العلوم الضرورية، فشجّع الشباب على تحصيلها، وحذره من الاستماع إلى كل جاهل يزهد فيها بحجة أنها علوم لا فائدة ترجى من الاشتغال بها، وأن العلوم التي يدعو الدين إلى صرف الجهد إليها هي علوم الدين فقط، يقول الشيخ ابن باديس موجّهاً: "فاحذر كل (متعلم) يزهدك في علم من العلوم، فإن العلوم

1. المصدر نفسه، ص.74.

كلها أثمرتها العقول لخدمة الإنسانية ودعا إليها القرآن بالآيات الصريحة، وخدم علماء الإسلام بالتحسين والاستنباط ما عرف منها في عهد مدنيتهم الشرقية والغربية، حتى اعترف بأستاذيتهم علماء أوروبا اليوم"¹.

كما كان الشيخ مقتنعا أن النهضة ليست صنعة النخبة وحدها مهما كانت قدراتها العلمية كبيرة ما لم تجد وسطا اجتماعيا يقدر دورها، و يساعدها في تفتيق نبوغها وتحقيق مشاريعها ومبتكراتها، فدعا إلى حركة تعليمية واسعة تنفذ إلى أعماق المجتمع، لتشمل جميع أفرادها، رجالا ونساء، صغارا وكبارا، وجعل من أهداف جمعية التربية والتعليم الإسلامية الأساسية التركيز على التعليم ونشر العلوم والمعارف، والابتعاد عن كل ما يصرفها عن القيام بهذه الوظيفة الأساسية، أو يؤثر بالسلب على قيامها بهذه الوظيفة، كما تشير إلى ذلك المادتان الثانية والرابعة من القانون الأساسي للجمعية، حيث تنص المادة الثانية على أن مقصود الجمعية هو نشر المعارف العربية الفرنسية، والمادة الرابعة على أن مقصد الجمعية هو التربية والتعليم لا غير، فإنها تحرم على نفسها الخوض في المسائل السياسية، والاختلافات الحزبية، والمذهبية، والشخصية، بأي وجه من الوجوه"².

ولا يشوش على تبني الشيخ ابن باديس وجمعية العلماء لهذا الهدف المحلي ما يذكره بعض الدارسين من أن الجمعية لم تول اهتماما في مدارسها للعلوم الكونية والاجتماعية الضرورية للنهضة، واكتفت بتدريس علوم اللغة والشريعة الإسلامية، مؤولا ما اتفق عليه الشيخ ابن باديس والشيخ البشير الإبراهيمي من عدم توسع مدارس الجمعية في تلقين العلوم والمعارف والاكتفاء بعلم قليل تأويلا سلبيا، على أساس أنه عدم تقدير من العلماء لهذه العلوم، رغم أن هذا الاتفاق كان الهدف منه في المرحلة الأولى من مراحل عمل الجمعية تخريج دفعات من المتعلمين تعليما صحيحا لانتزاع قيادة جماهير الشعب الجزائري من القيادات الجاهلة التي كانت تقودها بالجهل والخرافة، و كان هذا هدفا مرحليا قريبا لا هدفا بعيدا كما تصور هذا الدارس في مقاله"³.

1 - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج 4، مصدر سابق، ص ص. 42-43.

2 - المصدر نفسه، ص ص. 52-53.

3 - مصطفى حموش: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين هل كان مشروعنا ناقصا، جريدة الشروق اليومي، 07/04/17، وانظر أيضا المقال في موقع

الشيخ ابن باديس على الأنترنت www.binbadis.net

التشجيع على تعلّم الحرف وإنشاء المصانع وتنمية الأموال عن طريق التجارة

كان الشيخ ابن باديس يدرك أن النهضة تحتاج بالإضافة إلى العقول المبدعة إلى مهارات فنية في شتى المجالات الاقتصادية صناعية كانت أم فلاحية أم تجارية، فكان دائم الدعوة إلى "الجد في أسباب الحياة من فلاحه وتجاره وصناعته"¹، كما كان يدرك أن المال هو عصب النهضة فكان يدعو إلى المحافظة عليه وتنميته، ويحذر من كل التصرفات التي من شأنها أن تتسبب في إتلافه وتضييعه، ومن توجيهاته في هذا المجال قوله: "حافظ على مالك فهو قوام أعمالك، فاسلك كل سبيل مشروع لتحصيله وتنميته، واطرق كل باب خيري لبذله.

فاحذر بالوعة المضاربات الربوية في معاملاتك، ومن مسارب السرف في جميع ملذاتك إذا كانت من المباحات، دع ما إذا كانت من المحرمات"².

كما كان يدرك أن من أسباب النهضة القدرة على مواكبة العصر في أساليب ممارسة النشاطات الاقتصادية، فكان من توجيهاته قوله: "كن عصريا في فكرك وفي عملك وفي تجارتك وفي صناعتك وفي فلاحتك وفي تمدنك ورقيك"³.

الإفادة من التجربة الفرنسية في الإدارة والاقتصاد والصناعة

كما شجّع الشيخ ابن باديس على دخول المدارس الفرنسية لتحصيل علوم هي التي أنتجت النهضة الحديثة، شجّع كذلك الجزائريين على الإفادة من تجربة "فرنسا أم الرقي والمدنية"⁴ كما يقول عنها في بعض مقالاته، للمكانة العظيمة التي بلغت في إدارة شؤونها الاقتصادية من تجارة وفلاحة وصناعة.

ومن توجيهه للشباب الجزائري بأن يحرصوا على الإفادة من التجربة الفرنسية، دعوته لهم أن يسافروا إلى فرنسا، ليقبّسوا من تجربتها اقتباسا مباشرا، ومباركته لمبادرة قام بها شباب متّورون سنة 1926م في هذا الاتجاه، يقول الشيخ ابن باديس: "فإذا أردنا أن نقبّس منهم كما اقتبسوا منا، ونأخذ عنهم كما أخذوا عنا، فعلينا أن نخالطهم، ونخالطهم في ديارهم حيث مظاهر مدنيتهم الفخمة في مؤسساتهم

1 - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج4، مصدر سابق، ص.225.

2 - المصدر نفسه، ص.42.

3 - المصدر نفسه، ص.43.

4 - المصدر نفسه، ص.249-250.

العلمية والصناعية والتجارية، في أحزابهم على اختلاف مبادئها، في جمعياتهم على اختلاف غاياتها، في عظمائهم أصحاب الأدمغة الكبيرة التي تمسك بدفة السياسة، وتدير لولب التجارة، وتسير سفينة العلم، فالذين يخالطونهم هذه المخالطة بتمام تبصر وحسن استفادة، يخدمون أنفسهم وأمتهم خدمة لا تقدر، خدمة تكون أساسا للتقدم والرفي.

فهذا نرى ما عزم عليه أفراد متنورون من شبابنا الناهض من إيفاد وفد إلى الديار الفرنسية من أهم المشاريع التي يجب تأييدها وشكر القائمين بها¹.

ولما كان من مقتضيات هذه الإفادة أن يتولى الجزائريون بعض الوظائف والمسؤوليات في إدارة الاحتلال لم يمانع الشيخ ابن باديس من ذلك، رغم انتشار بعض الفتاوى التي تحرم على المسلم تولى أية وظيفة في إدارة المحتل الكافر، ولكن بشرط أن لا يساهموا في إلحاق الظلم بمواطنيهم، فقد أجاب عن سؤال ورد إليه: "هل يجوز تولي خطة الكتابة عند القائد وأخذ الأجرة عليها، وهل يجوز كذلك ما في معناها من رتبة الدائرة والعساس، أم لا يجوز؟"، فقال: "كل خطة من مثل ما ذكر في السؤال إذا لم يكن فيها ظلم ولا إعانة ظالم، فحائز توليها وأخذ الأجرة في مقابلة القيام بها"².

أما الهدف الثالث البعيد وهو خدمة الإنسانية فيقتضي الوصول إليه في نظر الشيخ ابن باديس أن يصل الإسلام الإنسانية وصولا صحيحا يتحقق به الاقتناع به، وتدفع به كثير من الشبه التي شوّهت صورته عند غير المسلمين، وهذا لا يتحقق بمجرد الدعوة القولية التي يتوجه بها الدعاة المسلمون إليهم، بل بالعمل على بلوغ أهداف مرحلية، نذكر منها الأهداف الثلاث الآتية:

تربية الفرد والارتقاء به في درجات الكمال الإنساني

ليبلغ هذا الفرد درجات عالية من الإحسان تمكّنه من تجاوز مشاعر الشخّ التي تمنعه من خدمة غيره ولو على حساب ما تشتهيه نفسه، وهو كمال إنساني على المستوى الفردي.

والعمل لتحقيق هذا الهدف بدأ منذ الخطوات الأولى من العمل الإصلاحية للشيخ ابن باديس، حيث كان الحرص قائما على تحقيق هذا الكمال الإنساني في الفرد الجزائري، وهو ما نلمسه من خلال التوجيهات التي كان الشيخ ابن باديس يقدمها لمن حوله من أبناء مجتمعه، مؤكداً أن التزامهم بهذه التوجيهات لا يخدم مجتمعهم فقط بل يخدم كل الإنسانية من حولهم، ومن التوجيهات التي تبرز لنا

1 - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج5، مصدر سابق، ص. 430429.

2 - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج3، مصدر سابق، ص. 257.

هذا البعد قول الشيخ ابن باديس: "هاك آدابا تقتضيها إنسانيتك، ويفرضها عليك دينك، وتستدعيها مصلحتك في هاته الحياة، هاك ما إن تمسكت به كنت إنسانا المدنية، ورجل السياسة، وسيدا حقيقيا يرمق من كل أحد بعين الاحترام والتعظيم"¹ ، ثم يسوق الشيخ مجموعة كبيرة من التوجيهات، تحقق هذا الكمال الإنساني في الفرد الجزائري، ومن هذه التوجيهات كذلك قوله مبينا للكرامة التي ينبغي أن يسعى الجزائري إلى تحصيلها في نفسه: "قد استودعنا خالقنا خِلقة كريمة، فعلينا أن نعرف قيمتها وأن نقدر قدرها، وحق على من كرمه ربه أن يكرم نفسه، فعلينا أن نكرم أنفسنا بتكريم أرواحنا بتنزيهها عن مساوئ الأخلاق وتحليلتها بمكارمها، وتكريم عقولنا بتنزيهها عن الأوهام والشكوك والخرافات والضلالات، وربطها على العلوم والمعارف وصحيح الاعتقادات، وتكريم جوارحنا بتنزيهها عن المعاصي وتحميلها بالطاعات، فنتحرى بأقوالنا وأفعالنا أكرم الأقوال وأكرم الأعمال، ونترفع عن جميع الرذائل والدنايا، وتباعد عن كل مواطن السوء والسفالة، ونحفظ كرامتنا وشرفنا أمام الله والناس، ونجتهد أن لا يمسنا بسوء لا منا و لا من غيرنا.

فإذا قدرنا هكذا أنفسنا وشكرنا - كما تقدم ربنا - بلغنا بإذن الله تعالى أبعد الغايات من التكريم والتفضيل"².

1 - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج4، مصدر سابق، ص.42-44.

2 - عبد الحميد بن باديس: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، مصدر سابق، ص.172.

بلوغ الكمال الإنساني على المستوى المجتمعي

ويتجلى في العلاقات التي تربط بين الأفراد، والنظم التي تضبط شؤونهم المختلفة، والنجاحات التي يحققها المجتمع في تعامله مع المقدرات الكونية التي تحيط به.

ويتحقق هذا الكمال الفردي والمجتمعي كما يؤكد الشيخ ابن باديس يمكن للمسلمين أن ينفعوا غيرهم، يقول مبينا ذلك: " لا يستطيع أن ينفع الناس من أهمل أمر نفسه، فعناية المرء بنفسه - عقلا وروحا وبدنا - لازمة له ليكون ذا أثر نافع في الناس على منازلهم منه في القرب والبعد، ومثل هذا كل شعب من شعوب البشر لا يستطيع أن ينفع البشرية ما دام مشتتا لا يهديه علم، ولا يمتنه خلق، ولا يجمعه شعور بنفسه ولا بمقوماته ولا بروابطه، وإنما ينفع المجتمع الإنساني ويؤثر في سيره من كان من الشعوب قد شعر بنفسه فنظر في ماضيه وحاله ومستقبله، فأخذ الأصول الثابتة من الماضي، وأصلح شأنه في الحال، ومدّ يده لبناء المستقبل يتناول من زمنه وأمم عصره ما يصلح لبنائه، معرضا عما لا حاجة له به أو ما لا يناسب شكل بنائه الذي وضعه على مقتضى ذوقه ومصالحته"¹.

وقد دلّت التجربة التاريخية كما يؤكد الشيخ محمد الغزالي أن السبب في إقبال الشعوب على الإسلام هو تحقق المسلمين بهذا الكمال الفردي والمجتمعي، يقول الغزالي: " الإعجاب بالإسلام في أحوال الفرد، والإعجاب بالإسلام في حال الدولة، هو وحده السبب في تزاخم الخاصة والعامة على هذا الإسلام وارتضاءهم له"².

تحقيق الأخوة الإسلامية بين المسلمين

يذكر الشيخ ابن باديس أنّ تحقيق الأخوة بين المسلمين يتجاوز الاعتبارات المفرقة من مذهب وطريقة وانتماء عرقي وجغرافي كان من أهم الأهداف التي كان يعمل لبلوغها بعمله الإصلاحية، فهو يحدد بعض ما كان يركز عليه في دعوته فيجعل من أهم ذلك الدعوة " إلى اعتبار الأخوة الإسلامية فوق كل مذهب وطريقة وجنس وبلد"³.

ويؤكد الشيخ ابن باديس أن تحقّق هذه الأخوة من شأنه أن يعيد للمسلمين قوتهم، ويفعل من دور كثرتهم العددية، ويجعلهم قادرين على نفع الإنسانية من حولهم، وذلك حين يقول: " قلوب خمسمائة

1 - عبد الحميد بن باديس: مجالس التذكير من حديث البشير النذير، مصدر سابق، ص. 298.

2. محمد الغزالي، مع الله دراسات في الدعوة والدعاة، د.ط، دار الهدى، عين مليلة (الجزائر)، د.ت.ا، ص. 232.

3 - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج 4، مصدر سابق، ص. 225.

مليون!، هذه قوة كبيرة في هذا العالم، مرتبطة بالحب، متدعة بالإيمان، فلو شعرت حقيقة الشعور ببعضها لأثمرت للإنسانية فوائد كبرى، وعملت لها أعمالاً عظيمة"¹.

أما الهدف الأخير من الأهداف البعيدة الذي هو تحقيق استقلال الجزائر عن فرنسا، فإنما يتحقق في نظر الشيخ ابن باديس ببلوغ مجموعة من الأهداف المرحلية، نذكر منها:

ترسيخ مقومات الانتماء الديني والوطني في نفوس الجزائريين

فأساس استقلال أيّ شعب من الشعوب في نظر الشيخ ابن باديس هو مدى الاقتناع الذي يكون عند أفرادهم بجنسيتهم القومية، فإذا كان هذا الاقتناع راسخاً فإن ما يكون من ضعف في حياة هذا الشعب من الناحية المادية قد يوقعه تحت طائلة الاحتلال لأمد معين، ولكنه ما دام محتفظاً بمقومات شخصيته سيستعيد استقلاله.

وانطلاقاً من هذه النظرة يقرر الشيخ ابن باديس أن العمل لتحقيق الاستقلال كهدف بعيد يقتضي أولاً ترسيخ المقومات من دين ولغة وتاريخ وشعور بالانتماء للوطن في نفوس الجزائريين، وهو ما ركز عليه في نشاطه الإصلاحية في أغلب مراحلها، ووضع له الشعار الذي اشتهر بعد ذلك: "الإسلام ديننا، والعربية لغتنا، والجزائر وطننا"، وعبر عنه في أبيات من الشعر بقوله:

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب
أو رام إدماجا له رام المحال من الطلب².

يتحدّث الشيخ ابن باديس على عمل حركة الإصلاح في تقوية اللغة العربية كأحد أهم هذه المقومات فيقول: "إن هذا اللسان العربي العزيز الذي خدم الدين وخدم العلم وخدم اللسان، هو الذي نتحدث عن محاسنه منذ زمان، ونعمل لإحيائه منذ سنين، فليحقق الله أمانينا"³.

تنظيم المجتمع وتأطيره

كان الشيخ ابن باديس يدرك أنّ من سمات المجتمعات القادرة على استعادة استقلالها حين يستلب منها بعد محافظتها على جنسيتها القومية أنّها مجتمعات تعمل للحصول على مطالبها ولا تكتفي

1 - عبد الحميد بن باديس: مجالس التذكير من حديث البشير النذير، مصدر سابق، ص. 288.

2. عمار طالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج3، دار البقطة العربية، بيروت (لبنان)، 1388هـ/1968م، ص. 571.

3 - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج4، مصدر سابق، ص. 147-148.

بالمطالبة بها، وترديد الشعارات المختلفة التي تعبر عنها، ومن المظاهر الدالة على عملها هذا اجتهاد أفرادها في تنظيم جهودهم في إطار منظمات وجمعيات ومؤسسات لتحقيق أهدافهم والوصول إلى مطالبهم، فكان يدعو الجزائريين إلى العمل على تأسيس هذه الجمعيات والمنظمات والمؤسسات. ويؤسس الشيخ ابن باديس لهذا الهدف المرحلي من القرآن الكريم حين يفسر قول الله تعالى: { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ } [النور: 62] فيقول: "إنما ينهض المسلمون بمقتضيات إيمانهم بالله ورسوله إذا كانت لهم قوة، وإنما تكون لهم قوة إذا كانت لهم جماعة منظمة تفكر وتدبر وتتساور وتتآزر، وتنهض لجلب المصلحة ودفع المضرة، متساندة في العمل عن فكر وعزيمة"¹.

وكانت المبادرة من الشيخ ابن باديس وإخوانه المصلحين بتأسيس جمعية للتنسيق بين جهود العلماء الجزائريين، وتوجيه المقتنعين بمشروع هذه الجمعية إلى تأسيس جمعيات ومؤسسات لخدمة هذا المشروع وتحقيق أهدافه.

ويعدّ تأسيس هذه الجمعيات والمؤسسات تدريبا للمجتمع على إدارة شؤونه بعيدا عن القرارات الفردية والارتجالية، وممارسة للعمل المؤسّساتي الذي سيفيدون منه مستقبلا في إدارة أمور حكومتهم ودولتهم، كما ينبه على ذلك رفيق الشيخ ابن باديس الشيخ البشير الإبراهيمي حين يقول في بيان المقاصد البعيدة التي تتحقق من إنشاء هذه الجمعيات: "وجمعيات بلغت المئات، مقسّمة على العلم والإحسان والأدب والرياضة، تبتّ في الأمة النظام، والإدارة، وآداب الاجتماع، وديمقراطية الانتخاب، وتعلمها كيف تناقش، وكيف تصوغ الرأي، وكيف تدافع عنه، وكيف تنقضه بالحجة، وكيف تزن الأفكار، وكيف تحاسب العاملين، وتدرّجها بالتدرج من الإدارات الصغرى إلى الإدارات الكبرى، لأن الأمة التي لا تحسن إدارة جمعية صغيرة، لا تحسن - بالطبع - إدارة مجلس فضلا عن حكومة"².

يبقى أن نشير إلى أن للشيخ ابن باديس موقفا خاصا من خوض العلماء العمل السياسي من خلال تأسيس أحزاب تحقق للشعب مطالبه في الحرية والاستقلال، وتشارك في الانتخابات، حيث يرى أن الظروف التي يمر بها المجتمع الجزائري تحت طائلة الاحتلال، كانت تتطلب عملا مع الشعب الجزائري لتعليمه وتهذيبه ونفي كثير من الآفات الاجتماعية من حياته، لا تأسيس جمعية سياسية يكون همها

1 - عبد الحميد بن باديس: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، مصدر سابق، ص. 221.

2 - محمد البشير الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ط1، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1981م، ص. 114.

الأساس المطالبة بحقوقه، كذلك صرفه عن التفكير في هذا النوع من الجمعيات ما استخلصه من دراسته لتجربة الأمير خالد السياسية، التي جعلته يقتنع باستحالة نجاح أي هيئة سياسية في تحقيق أهدافها في ظل هذه الظروف مهما كانت القدرات التي يمتلكها أصحابها¹. ومع قناعته هذه، وموقفه من العمل السياسي الحزبي، إلا أنه كان يدعو إلى التنسيق مع الأحزاب الجزائرية القائمة فيما يحقق أهداف حركة الإصلاح².

تحرير المؤسسات الإسلامية من قبضة الاستعمار الفرنسي

إذا كان الشيخ ابن باديس دعا إلى تأسيس الجمعيات وإنشاء المؤسسات لتحقيق أهداف حركة الإصلاح، والتقدم بالمجتمع الجزائري نحو تحقيق استقلاله، فإنه دعا في المقابل الجزائريين إلى العمل على استرجاع المؤسسات التي كانت تدير شؤونهم، وتقوم بدور كبير في تأطير حياتهم الثقافية والاجتماعية قبل قدوم الاحتلال وتحريرها من قبضة الاحتلال، ومن هذه المؤسسات معاهد التعليم الديني والكتاتيب، ومؤسسة الأوقاف التي كانت المصدر الذي يمول المشاريع التعليمية والخيرية، والمساجد. ولتحقيق هذا الهدف عمل الشيخ ابن باديس وإخوانه من العلماء، في إطار الجمعية وخارجها بالتنسيق مع جمعيات وهيئات نيابية ومن خلال المؤتمرات، لتوعية المجتمع بأهمية هذه المؤسسات وضرورة تحريرها واسترجاعها، وهو ما أشار إليه الإبراهيمي مخاطبا الاستعمار: "إن جمعية العلماء تعمل للإسلام بإصلاح عقائده، وتفهم حقائقه، وإحياء آدابه، وتاريخه، وتطالبك بتسليم مساجده وأوقافه إلى أهلها، وتطالبك باستقلال قضائه، وتسمي عدوانك على الإسلام ولسانه ومعابده وقضائه عدوانا بصريح اللفظ"³.

إرساء الثقافة الجهادية

كان الشيخ ابن باديس يدرك أنّ الاستقلال الذي هو حق طبيعي لكلّ شعب إذا أخذ لا يمكن أن يسترد إلا عن طريق تضحيات كثيرة، لا يقدر عليها إلا من أعدّ إعدادا خاصا يهون عليه التضحية بماله ونفسه من أجل استعادة هذا الحق.

1- انظر تفاصيل هذه التجربة وما استخلصه الشيخ ابن باديس منها في: عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج3، ص. 110-102.

2- عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج4، ص. 197-198.

3- محمد زرمان: الأسس النظرية لمنهج التغيير عند محمد البشير الإبراهيمي، مرجع سابق، ص. 260.

فكان من الأهداف المرحلية التي عمل لها لتحقيق هذا الشرط في الفرد الجزائري، نشر ثقافة ترسخ بُعد التضحية والفداء لأجل الدين والوطن في النفوس.

ويكفي لإدراك كون هذا الأمر هدفا لعمل الشيخ ابن باديس أن نعلم أنه في التراجم التي كان يعرف فيها ببعض أعلام الأمة الإسلامية من الرجال والنساء على صفحات الشهاب خصّص قسما خاصا جعله تحت عنوان "أباة الضيم"، عرّف فيه بمجموعة من الرجال الذين اختاروا الموت على الرضا بالدين والذل، وبيّن الهدف من إنشائه لهذا القسم من التراجم¹ فقال: "أباة الضيم هم الممتنعون من الذل الذين يختارون المنية على الدنية، يستطيعون الموت في العز على الحياة في الذل، يعلمون أن الموت في العز راحة وشرف، وأن الحياة في الذل عذاب ومهانة، وقد كان هؤلاء في رجالات العرب والإسلام كثيرا جدا عددهم، مشهورة مواقفهم، بل كاد هذا الخلق يكون عاما في العرب والإسلام في تلك الأيام"².

ثم يشير إلى الهدف المتوخى من التعريف بمواقف هؤلاء الرجال بشيء من التقية فيقول: "لرجالات هذا الخلق العظيم أخبار محفوظة في كتب التاريخ ونشر مدونة في دواوين الأدب، وإن في تلك الأخبار والكلمات لخير مربّ للنفوس، ومنمّ للأدب، ومكّمّ للعلم، ولذا أردنا أن ننشر شيئا من تلك الأخبار والكلمات في هذا الباب من المجلة لما فيه من القصة والتربية والعبرة"³.

ويبدأ الشيخ ابن باديس هذه التراجم بالوقوف عند كلمة قالها الإمام علي رضي الله عنه تحريضا لأصحابه في معركة صفين وهي قوله: "الموت في حياتكم مقهورين، والحياة في موتكم قاهرين"، ويعلق عليها بقوله: "فهذه الكلمة هي الحقيقة التي من فقها وتشرب قلبه معناها كان من أباة الضيم، فإن حياة المقهور آلام متوالية وغصص متتابعة، وهو في كل لحظة يتجرّع مرارة شعوره بالقهر ما هو أعظم بكثير مما يذوقه من سكرات الموت أو الضربة التي توقع به الموت، مع ما أن ما يذوقه من الموت ينقضي سريعا، وما يتجرعه من مرارة القهر متجدد في اللحظات"⁴.

1 - لأخذ تصور عن ملامح منهج ابن باديس في هذه التراجم انظر: حسين شرفة، استلهام التاريخ في المنهج التربوي لابن باديس دراسة في "كتاب رجال السلف ونساؤه"، مجلة الموافقات، العدد السادس، السنة السادسة، 1418هـ/ 1997-1998م، ص. 334-350.

2 - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج 3، مصدر سابق، ص. 180.

3 - المصدر نفسه، ص. 180.

4 - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج 3، مصدر سابق، ص. 180-181.

وخدمة للهدف ذاته كتب مقالا بمناسبة استشهاد "سيد الشهداء ورأس الأبرار" عمر المختار، ومما جاء فيه قوله: "كلّ ذلك وصنديد برقة رابض لا يأخذه في سبيل الله ضعف ولا وهن، وكان يجول في ميادين القتال ممتطيا صهوة جواده الأدهم، وقد وهن عظمه ولم يتدارك الوهن قلبه، واشتعل رأسه شيئا واكتست لحيته لون القمر وما استطاعت الثمانون عاما التي قضاها في طاعة الله وجهاد في سبيله أن تقوّس له ظهرا، أو تضع له هامة"¹.

هذه هي أهمّ الأهداف البعيدة والأهداف المرحلية التي حدّدها الشيخ ابن باديس لعمله الإصلاحية، وكان يرى أنّ بلوغها من شأنه أن يحدث في المجتمع الجزائري إصلاحا يشمل حياته الدّينية والعلمية والاجتماعية والسياسية، يدخل به إلى حلبة التاريخ ليبنى حضارته من جديد.

3- وسائل الإصلاح عند الشيخ ابن باديس

من خلال قراءتنا لتراث الشيخ ابن باديس، ولما كتب عن جهوده الإصلاحية من دراسات، ومتابعتنا لعمله الإصلاحية في مراحلها المختلفة التي مرّ بها، يمكننا تحديد أهمّ الوسائل التي استخدمها، أو أرشد العاملين في مجال الإصلاح إلى استخدامها، وبعض هذه الوسائل أشار إليها في سياق بيانه لوسائل جمعية التربية والتعليم الإسلامية لتحقيق أهدافها، ومن ذلك قوله في المادة الثالثة من قانونها الأساسي: "تسعى الجمعية لمقصدها هذا، أولا بتأسيس مكتب للتعليم، ثانيا بتأسيس ملجأ للأيتام، ثالثا بتأسيس ناد للمحاضرات، رابعا بتأسيس معمل للصنائع، خامسا بإرسال التلامذة على نفقتها إلى الكليات والمعامل الكبرى"²، وأكد الإشارة إليها أحد تلاميذه بقوله: "لقد كان الإمام ابن باديس يؤمن إيمانا قويا بأن نهضة الجزائر من كبوتها لن تكون إلا على سواعد شبابها، فعمل على إعدادها - تعليما وتهديبا- بواسطة مساجد الوعظ والإرشاد، ومدارس التربية والتعليم، ونوادي التثقيف والتوجيه، وجمعيات التكوين والتنظيم، والصحف والمجلات"³.

أولا- المساجد

الوسيلة الأولى التي نقف عندها، وقد بدأ الشيخ ابن باديس بها في العمل لبلوغ أهداف عمله الإصلاحية، وهي وسيلة المساجد، وكانت البداية بها لاعتبارات منها أنها كانت الوسيلة المتاحة

1 - المصدر نفسه ، ص. 74-75.

2 - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج 4، مصدر سابق، ص. 53.

3 - عبد الرحمان شيبان، مقدمة كتاب مجالس التذكير من حديث البشير النذير، مصدر سابق، ص. 21.

للشيخ ابن باديس بعد عودته من تونس، ومنها كذلك ما كان يعتقده الشيخ ابن باديس من دور عظيم للمساجد في تحقيق نهضة الأمة الإسلامية عبر تاريخها الطويل.

بدأ الشيخ ابن باديس التدريس بالجامع الكبير وهو أقدم مساجد المدينة¹، إلى أن منعه مفتي قسنطينة الشيخ المولود بن الموهوب²، ثم انتقل إلى الجامع الأخضر، فربط به أكثر من ربع قرن "يعلم ويربي الشبيبة بالنهار، ويعظ ويرشد ويفسر القرآن، ويشرح الحديث للمواطنين الكبار بالليل"³.

وقد كان عدد الطلبة في دروسه يتراوح بين مائة و ثلاثمائة طالب بحسب السنوات، وقدر عدد الحاضرين لدروسه الليلية بألفي (2000) شخص⁴.

وفي فترة تعليمه بالجامع الأخضر كان يلقي دروسا في مساجد ثلاثة، أولها مسجد سيدي قموش وهو من أملاك آل باديس منذ القدم، صادرته الإدارة الفرنسية عند احتلال مدينة قسنطينة، ثم اشترته أسرة ابن باديس سنة 1869م، وساهم والد ابن باديس في ترميمه سنة 1924م، وأحدثت فيه مساكن للطلبة، وثانيها جامع سيدي بومعزة، وثالثها مسجد سيدي عبد المومن⁵.

ثانيا- المدارس:

أما الوسيلة الثانية التي استخدمها الشيخ ابن باديس في عمله الإصلاحية فهي المدارس، أو ما يطلق عليه التعليم المكتبي في مقابل التعليم المسجدي.

وكانت نواة هذا التعليم بالنسبة للشيخ ابن باديس ما كان يقوم به من تعليم مسجدي، ففي سنة 1922م كوّن الشيخ ابن باديس مع جماعة من المصلحين بقسنطينة مكتبا للتعليم (مدرسة ابتدائية) عُرف باسم المكتب العربي الابتدائي، فوق مسجد سيدي بومعزة⁶، ثم نقل هذا المكتب إلى مقر الجمعية الخيرية الإسلامية سنة 1927م، وكانت دروسه فيها مقسّمة إلى أربعة أقسام، قسّمان منها: لأبناء الكتاتيب القرآنية، وقسّمان لأبناء المكاتب الفرنسية⁷.

1 - عبد الكريم بوصفصاف: المرجع السابق، ص.382.

2 - أحمد حماني: صراع بين السنة والبدعة...، ج1، مرجع سابق، ص.234.

3 - تركي رابح: الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، مصدر سابق، ص. 351.

4 - عمار طالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج1، ص.117.

5 - عبد الكريم بوصفصاف: المرجع السابق، ص.384.

6 - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج4، مصدر سابق، ص.103.

7 - عبد الكريم بوصفصاف: المرجع السابق، ص.386.

ثم إنَّ الشيخ ابن باديس رأى أن الظروف أصبحت سائحة لتوسيع دائرة هذا التعليم، حتى يتسع لعدد أكبر من الأطفال، فأسس جمعية التربية والتعليم الإسلامية، كما يذكر الشيخ ابن باديس نفسه حين يقول: "وفي سنة 1349هـ - 1930م رأيت أن أخطو بالمكتب خطوة جديدة وأخرجه من مكتب جماعة إلى مدرسة جمعية، فحرّرت القانون الأساسي لجمعية التربية والتعليم الإسلامية، وقدمته باسم الجماعة المؤسسة للحكومة فوقع التصديق عليه"¹.

وكان لهذه المدرسة عدة فروع في أحياء عدة من مدينة قسنطينة، وبلغ عدد الطلبة المسجلين في هذه الجمعية سنة 1934م 400 تلميذاً².

ثمَّ توالى بعد ذلك فتح مدارس للتعليم في أنحاء مختلفة من القطر الجزائري، ففتحت مدرسة دار الحديث بتلمسان في صيف 1937م لتعليم البنين والبنات، "و كانت تحوي عدة أقسام، تُخصّص كل قسم لعمل من الأعمال، قسم للصلاة، وآخر للمحاضرات، وثالث للتعليم"³، مما يدل على أنّ دور المدرسة في نظر الشيخ ابن باديس وإخوانه من المصلحين كان أكبر من مجرد تلقين المعلومات ونقل المعارف من جيل إلى جيل، بل هي محضن تربوي بآتم معنى الكلمة.

كما أسّست في عام 1939 مدرسة التعليم والتربية ببسكرة من قبل رجال من الجمعية وعلى رأسهم الشيخ محمد خير الدين⁴.

قدّرت مدارس الجمعية سنة 1931-1932 بـ 70 مدرسة ذات القسم الواحد والقسمين، وبلغت 85 مدرسة سنة 1938م، يزاوّل التعلّم بها 4047 تلميذاً، ووصل عددها سنة 1954م إلى 150 مدرسة يدرس فيها أكثر من خمسين ألف تلميذ من البنين والبنات⁵.

ثالثاً- الصحافة

أما الوسيلة الثالثة التي ركز عليها الشيخ ابن باديس في تحقيق أهدافه الإصلاحية فهي الصحافة، فقد أدرك كما أدرك كثير من أعلام الإصلاح في القرن العشرين أهمية هذه الوسيلة في تبليغ الأفكار

1. عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج 4، مصدر سابق، ص.103.

2. عبد الكريم بوصفصاف: المرجع السابق، ص.386.

3- محمد خير الدين: مذكرات، ج 1، مرجع سابق، ص. 182.

4- عبد الكريم بوصفصاف: المرجع السابق، ص.387.

5- المرجع نفسه، ص.388.

ونشرها بين قطاع عريض من الناس في أسرع وقت وبأيسر جهد ، فاندفعوا إلى تأسيس الصحف والمجلات،¹ وكذلك فعل الشيخ ابن باديس، رغم معارضة بعض المصلحين في الجزائر لاستخدام هذه الوسيلة في المرحلة الأولى من مراحل سير الحركة الإصلاحية، وعلى رأسهم الشيخ البشير الإبراهيمي، لأنهم كانوا يرون أولوية أن يصرف المصلحون جهودهم في هدوء ومثابرة إلى التعليم بالمساجد والمدارس لتكوين النخبة التي ستكون الأساس الذي تستند إليه حركة الإصلاح في كلّ الميادين، ولكنّ الشيخ ابن باديس ومن وافقه من المصلحين كانوا يرون أن تهيئة الأرضية للعمل الإصلاحي في أوساط المجتمع يقتضي دخول ميدان الصحافة بما تمتلكه من إمكانيات، ولو كانت قليلة في البداية، ورجح رأي الشيخ ابن باديس ومن وافقه كما يقول الإبراهيمي: "لمقتضيات الله من ورائها حكمة"².

دخل الشيخ ابن باديس ميدان الكتابة الصحفية مع بدايات عمله التعليمي سنة 1913م، فكانت خِطّة في المرحلة الأولى أن يعمل من خلال الصحافة الموجودة، فكان يكتب مقالات في جريدة النجاح لصاحبها الشيخ عبد الحفيظ الهاشمي، وكان يمجّزها بـ "عَبْسِي" نسبة إلى الشاعر العربي عنتر بن شداد العبسي، الذي يرمز للشجاعة والإقدام والسعي لافتكاك الحرّية ، ولكنه لاحظ أن صاحب هذه الجريدة ضعف "أمام رغبات ومؤثرات" بتعبير ابن باديس، ففتح جريدته لأقلام تؤيد خرافات الطريقين، وتطعن في شخصيات المصلحين³، فتوقف الشيخ ابن باديس عن الكتابة فيها، وأسّس جريدة المنتقد بتاريخ الثاني من شهر جويلية 1925م، مفتتحا العدد الأول منها بمقولة تدلّ على نظرتة إلى عالم الصحافة، والدوافع التي دفعته إلى ولوجه، وهي قوله: "باسم الله، ثمّ باسم الحق والوطن، ندخل عالم الصحافة العظيم، شاعرين بعظمة المسؤولية التي نتحملها فيه، مستسهلين كل صعب في سبيل الغاية التي نحن إليها ساعون، والمبدأ الذي نحن عليه عاملون"⁴.

1- عبد الحميد النجار: مشاريع الإشهاد الحضاري، مرجع سابق، ص.151.

2 - محمد البشير الإبراهيمي: نشوء الحركة الإصلاحية، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مرجع سابق، ص. 51-50.

3- أحمد حماني: صراع بين السنة والبدعة ...، ج1، مرجع سابق، ص.130.

4 - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج5، مصدر سابق، ص. 172.

والمنتقد جريدة أسبوعية يوضح اسمها الهدف من إصدار الشيخ ابن باديس لها، وهو كما شرحه في العدد الأول منها: " ننتقد الحكام والمديرين والنواب والقضاة والعلماء والمقاوم، وكل من يتولى شأنًا عامًا من أكبر كبير إلى أصغر صغير، من الفرنسيين والوطنيين"¹.

ونظرًا لشدة لهجة هذه الجريدة في نقد بدع الطرقيين والممارسات المححفة لبعض الحكام والمديرين، صدر قرار بتعطيلها بتاريخ 29 أكتوبر 1925م، بعد صدور ثمانية عشر عدد منها².

وبعد أقلّ من شهر من تعطيل جريدة المنتقد أصدر الشيخ ابن باديس جريدة الشهاب بتاريخ 12 نوفمبر 1925م، بدأت تصدر مرة في الأسبوع، ثم مرتين في الأسبوع، ولما واجهت أزمة مالية كادت تعصف بها تحولت إلى مجلة شهرية، وذلك بعد أربع سنوات من صدورها³.

ومع استمرار الشيخ ابن باديس في إصدار جريدة الشهاب، ليعبر فيها عن مواقف من القضايا المختلفة باسمه الخاص وليس كرئيس للجمعية، ساهم في تأسيس أربع صحف في إطار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وهي جريدة "السنة النبوية"، وقد صدر العدد الأول منها في أول مارس 1933م، يقول الشيخ ابن باديس مبينًا الهدف من إصدارها: "تنشر على الناس ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم في سيرته العظمى، وسلوكه القويم، وهديه العظيم" وهذا لـ "ليكون المسلمون مهتدين بهدي نبيهم في الأقوال والأفعال، والسير والأحوال، حتى يكونوا للناس كما كان هو صلى الله عليه وسلم مثلاً أعلى في الكمال"⁴، وتوقفت عن الصدور في جويلية 1933م بقرار من وزير الداخلية الفرنسية.

ثم أصدرت الجمعية في 17 جويلية جريدة "الشريعة"، وقد أعلن ابن باديس في افتتاحية العدد الأول منها أن الجمعية ستمضي في طريقها لتحقيق الغاية التي من أجلها أنشئت، وهي "تثقيف الشعب الجزائري، ورفع مستواه العقلي، والخلقي والعلمي" وأن جريدة "الشريعة" لم تنشأ إلا لتخلف جريدة "السنة النبوية" " وستقوم مقامها، وتحلّ من القلوب محلّها"⁵، وما إن ظهر العدد السابع منها حتى

1 - عبد الحميد بن باديس: المنتقد، العدد الأول، جويلية 1925م، انظر: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج5، ص. 176

2 - محمد ناصر: الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1939م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1978م. ص. 54-58.

3 - عبد الكريم بوصفصاف: المرجع السابق، ص. 399.

4 - محمد ناصر: الصحف العربية الجزائرية، مرجع سابق، ص. 131.

5 - عبد الكريم بوصفصاف: المرجع السابق، ص. 403.

عُطِّلت بتاريخ 29 أوت 1933م، رغم ما أبداه الشيخ ابن باديس فيها من مرونة سياسية، وتأكيدُه أنّ الهدف من إنشائها هو مساعدة فرنسا الديمقراطية على الارتقاء بالشعب الجزائري¹.

ثمّ أصدرت الجمعية بعد حوالي عشرين يوما من توقيف "الشريعة" جريدة باسم "الصراط السوي"، وكان مصيرها كمصير أخواتها حيث ما إن صدر العدد السابع عشر منها حتى عطلت بتاريخ جانفي 1934م، وذلك بعد أن صدر من وزارة الداخلية في 23 ديسمبر 1933م قرار ينصّ على توقيف صدور كل جريدة تسير على نهج الجرائد السابقة².

وبعد سنتين من توقيف جريدة "الصراط السوي"، أصدرت جمعية العلماء جريدة "البصائر" بتاريخ 27 ديسمبر 1935م، وكانت جريدة أسبوعية، وقد تحقّق لها انتشار واسع في الداخل والخارج، إذ كانت تطبع ما يقارب أربعة آلاف نسخة، وهو عدد قلّمَا بلغته جريدة أخرى في تلك الظروف³. واستمر صدور هذه الجريدة حتى قيام الحرب العالمية الثانية، وقرّرت جمعية العلماء إيقافها لئلا تُدفع إلى تأييد فرنسا في مواقفها في هذه الحرب⁴.

هذه هي الصحف التي أصدرها الشيخ ابن باديس، وعمل من خلالها على تحقيق بعض أهداف حركته الإصلاحية، وهناك صحف أخرى كان يصدرها غيره من المثقفين باللّسان العربي وباللّسان الفرنسي فكان يؤيّدونها ويشيد بمواقفها في القضايا المختلفة على صفحات جرائده، ومنها جريدة "الدفاع" (La Défense) التي كان يصدرها الأمين العمودي⁵.

وكانت هذه الوسيلة من أهمّ الوسائل التي عزّفت بأفكار الشيخ ابن باديس الإصلاحية لدى شرائح واسعة من المجتمع الجزائري في الشرق والغرب والشمال والجنوب، بل وساهمت في التعريف بحركته الإصلاحية في الخارج مغربا وشرقاً.

رابعا- الجمعيات

وكانت الجمعيات هي الوسيلة الرابعة التي استعان بها الشيخ ابن باديس لإنجاز أهداف حركته الإصلاحية، ذلك لأنه كان يدرك أن جهود الفرد مهما كانت الإمكانيات التي يمتلكها يبقى تأثيرها

1- المرجع نفسه، ص.403.

2- المرجع نفسه ، ص.404.

3- محمد ناصر: الصحف العربية الجزائرية، مرجع سابق، ص. 198.

4- محمد خير الدين: المرجع السابق، ص. 299.

5- عبد الكريم بوصفصاف: المرجع السابق ، ص.406.

محدودا في ميدان التغيير الاجتماعي، ولما لاحظته من اعتماد أعلام المشروع الإصلاحية في العالم الإسلامي في القرن الثامن عشر وأوائل القرن العشرين على الجمعيات في الترويج لمشروعهم¹. وقد سعى الشيخ ابن باديس في فترة مبكرة من شروعه في عمله الإصلاحية إلى الاستعانة بهذه الوسيلة، حيث اقترح على الشيخ البشير الإبراهيمي سنة 1924م العمل لتأسيس جمعية تحت اسم "الإخاء العلمي"، تتكون من علماء قسنطينة وطلبة العلم فيها، وتكون خاصة بعمالقتها، "تجمع شمل العلماء والطلبة وتوحد جهودهم، وتقارب بين مناحيهم في التعليم والتفكير، وتكون صلة تعارف بينهم، ومزيلة لأسباب التناكر والجفاء"²، فوافقته الشيخ البشير على رأيه، ووضع لها قانونها الأساسي بطلب من الشيخ ابن باديس، وعرض الشيخ ابن باديس الفكرة على جماعة من العلماء فاستحسنوها، لكن الفكرة لم تتجسد لأن الظروف لم تتهيأ بعد لمثل الأعمال كما يؤكد البشير الإبراهيمي.

واستمر الشيخ ابن باديس في تهيئة الظروف لجعل هذه الفكرة واقعا، فتمكّن بعد ست سنوات من اقتراحه للفكرة، في شهر فيفري سنة 1931م من تأسيس جمعية تهتمّ بالتعليم بمدينة قسنطينة تحت اسم "جمعية التربية والتعليم الإسلامية"، وجاء في القانون الأساسي لهذه الجمعية أنّ الهدف من إنشائها هو "نشر الأخلاق الفاضلة، والمعارف العربية والفرنسوية والصنائع اليدوية بين أبناء وبنات المسلمين"³، ثم تهيأت له الظروف أكثر فتمكّن في نفس السنة بتاريخ 5 ماي 1931م من تأسيس جمعية للعلماء المسلمين الجزائريين، وقد حرص على أن تضم علماء الجزائر بكلّ توجهاتهم المذهبية والفكرية، وحقق ذلك فعلا إذ شملت العضوية فيها "المصلحين والطرقين، والمالكين والإباضيين"⁴. وقد تمكن الشيخ ابن باديس من خلال هذه الجمعية من إنجاز الكثير من أهدافه الإصلاحية، ومن توسيع دائرة عمله الإصلاحية ليشمل القطر الجزائري كله، يقول أحد الدارسين لحركات الإصلاح في العالم الإسلامي في حقّ هذه الجمعية: "على أنّ من أهم الجمعيات و أكبرها أثرا في خطة التحرر هي جمعية العلماء التي أسسها ابن باديس في قسنطينة بالجزائر، فقد كانت بحق أنموذجا تنظيميا لنشر

1 . عبد المجيد النجار: مشاريع الإسهاد الحضاري، مرجع سابق، ص.148.

2 . محمد البشير الإبراهيمي: جمعية العلماء فكرة، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مرجع سابق، ص. 53.

3 - تركي رابح: الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، مرجع سابق، ص. 354.

4 - محمد الطاهر فضلاء، الإمام الراحل البشير الإبراهيمي، ط1، مطبعة البعث، قسنطينة، 1967م، ص.164.

الإصلاح، حتى إنها ليتمكن أن تعتبر حركة إصلاحية كاملة لا جمعية محدودة فحسب، وقد كانت حركة تجمع بين البعد النخبوي من العلماء والمرشدين، والبعد الشعبي من عامة الناس"1.

ثم توسّعت دائرة تأسيس الجمعيات في المجالات المختلفة: الثقافية والخيرية والرياضية بتوجيه من الشيخ ابن باديس من خلال الصحافة والزيارات الميدانية، وكان الشيخ يقترح على المؤسسين لهذه الجمعيات أن يشركوا في رئاستها الأعيان والموظفين الكبار والعلماء الطاعنين في السن تشريفا لهم2، ودعما معنويا لهذه الجمعيات حتى يتمّ الترخيص لها من قبل الإدارة، وتصادف القبول والإقبال من قبل المجتمع.

يشير الشيخ البشير الإبراهيمي إلى تزايد عدد هذه الجمعيات، وتنوّع المجالات التي تهتم بها، وإلى ما كانت تكسبه لأفراد المجتمع من آداب وكفاءات، وتقدمه من خدمات، فيقول: "جمعيات بلغت المئات، مقسّمة على العلم والإحسان والأدب والرياضة، تبتّ في الأمة النظام، والإدارة، وآداب الاجتماع"3.

هذه هي أهم الوسائل التي استخدمها الشيخ ابن باديس في عمله الإصلاحي، ليلبغ من خلالها الأهداف التي حدّدها لهذا العمل، وهناك وسائل أخرى كثيرة لم نقف عندها.

وبحديثنا عن وسائل الإصلاح عند الشيخ ابن باديس نكون قد فرغنا من موضوع هذه المحاضرة، وتبقى جوانب أخرى في الجهود الإصلاحية لابن باديس جديرة بالدراسة، مثل تقويم الشيخ ابن باديس لواقع المجتمع الجزائري، ومفهوم الإصلاح عنده وخصائصه وشروطه، ثم المجالات التي شملها عمله الإصلاحي.

1 - عبد المجيد النجار: مشاريع الإسهاد الحضاري، مرجع سابق، ص.149.

2 - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج4، مصدر سابق، ص.304.

3 - محمد البشير الإبراهيمي: آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج3، مرجع سابق، ص.114.